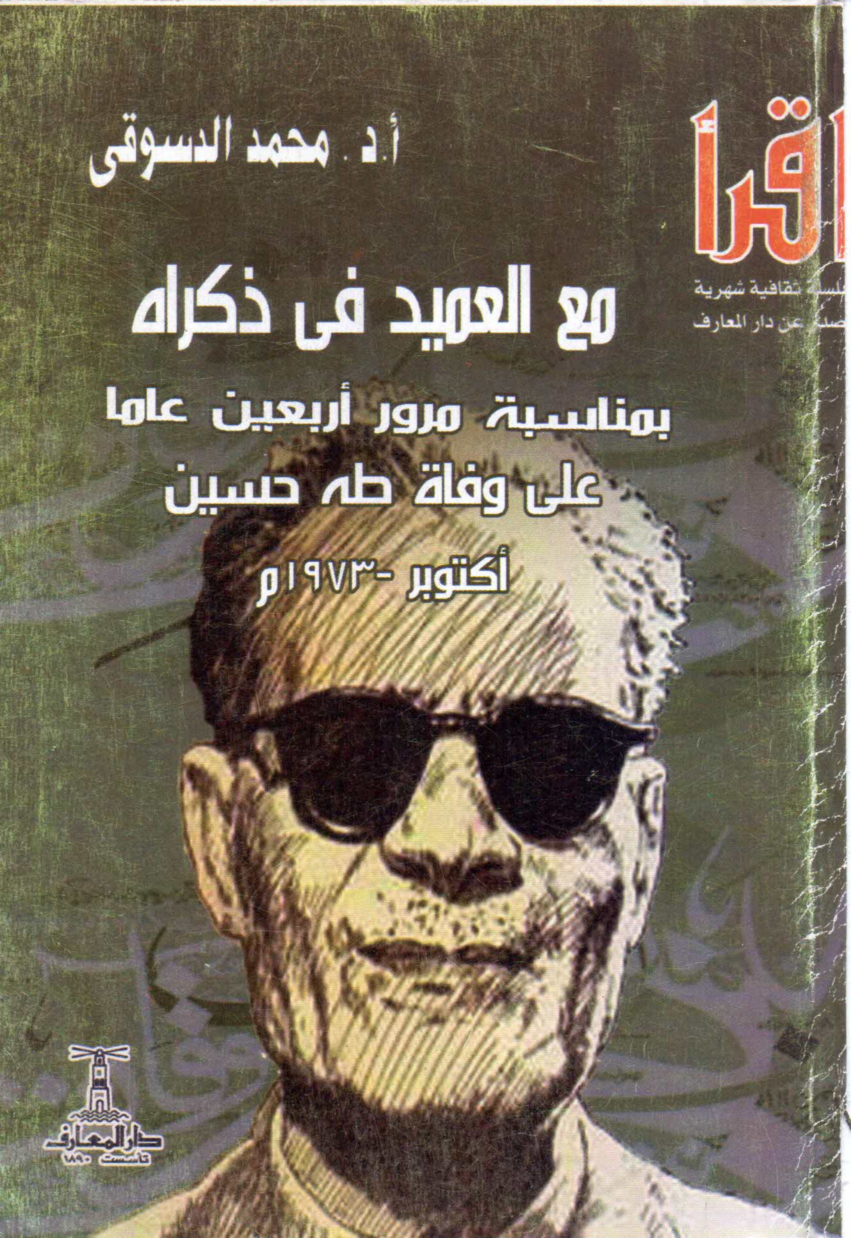

اقرأ
ثقافية شهرية
عن دار المعارف
أ.د. محمد الدسوقى
مع العميد فى ذكراه
بمناسبة مرور أربعين عاما
على وفاة طه حسين
أكتوبر -١٩٧٣م
دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

كثرت الدراسات المستفيضة عن عميد الأدب العربى طه حسين، سواء أكان ذلك فى مصر أم خارجها؛ حتى لنكاد نحيط علما بالمنهج الأسلوبى الذى انتهجه فى كتاباته، كما نكاد نحيط علما- بما حوته رائعته الأيام- بسيرة العميد الذاتية، لكننا فى هذا الكتاب وبعد أربعين عاما على وفاته يخرج علينا سكرتير طه حسين الشخصى وتلميذه النجيب د.محمد الدسوقى بما يشبع نهمنا من أسرار العميد الشخصية والموضوعية.. نهديها إليك عزيزى القارئ ضمن إصدارات سلسلة اقرأ التى قال عنها طه حسين نفسه "إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة..."



http://gate.dar-elmarf.com

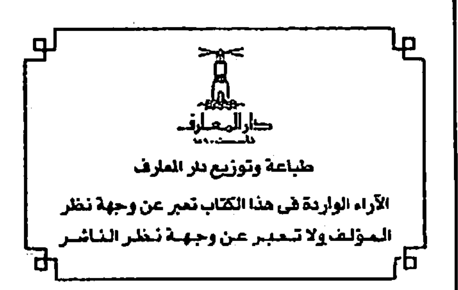


تصميم الغلاف : غادة نبيل



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٧٠]



تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع الجمع وفصل الألوان
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

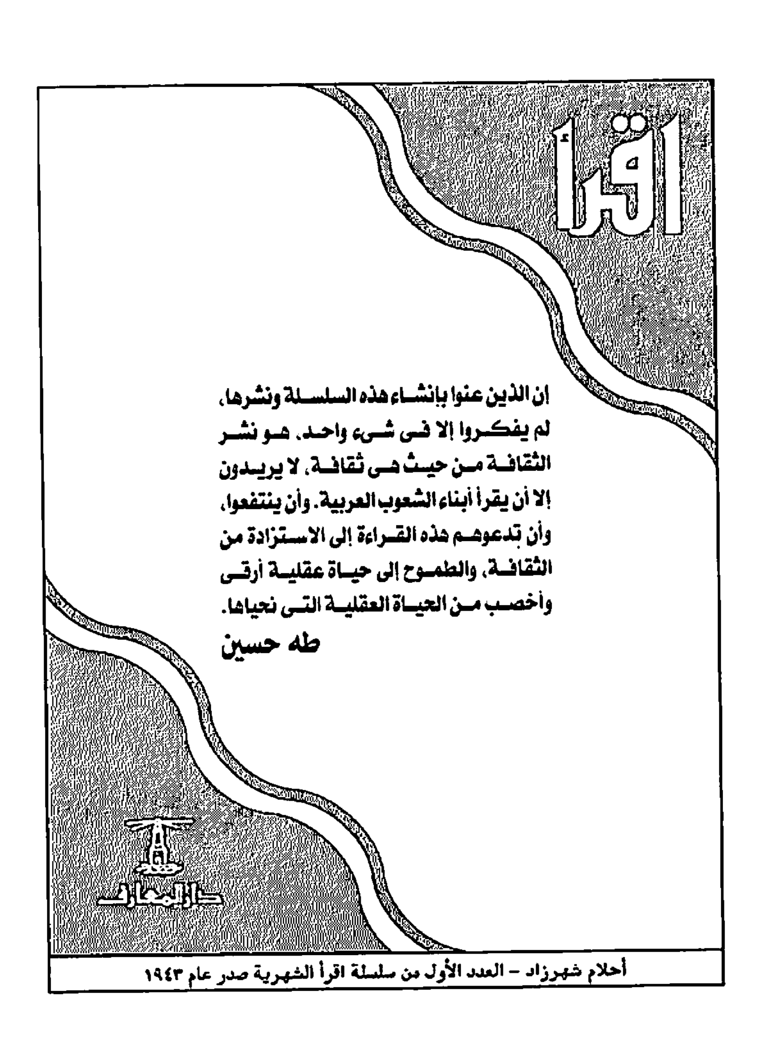
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ — فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ — E-mail: maaref@idsc.net.eg
http://gate.dar-elmarf.com

أ. د. محمد الدسوقى

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة






اقرأ
ان الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر
الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون
إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا،
وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.
طه حسين
دار المعارف
أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

المقدمة

الحمد لله الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله الذى أرسله ربه رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته ومن دعى بدعوته إلى يوم الدين، وبعد..

فمما لا مراء فيه أن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين رحمه الله، كان طاقة فكرية وعلمية متميزة فهذا الإنسان الفقير الذى فقد بصره وهو فى نحو الثالثة من عمره، لم يستسلم لما نزل به من فقد للبصر، ولكنه جاهد فى سبيل حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بالأزهر، وعكف على القراءة والدراسة، ولما أنشئت الجامعة الأهلية، التحق بها وجمع بين الدراسة فيها والدراسة فى الأزهر، وقد ظهر نبوغه منذ كان طالبًا، فكان يكتب فى الصحف وبخاصة فى الجريدة التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد، وكان لنبوغه أثر واضح فى أن يكون الأول فى الجامعة الأهلية، ومن ثم حصل منها على رسالة الدكتوراه، ثم أرسل فى بعثة إلى فرنسا، وتعلم اللغة الفرنسية، ثم حصل على الدكتوراه فى رسالة عن ابن خلدون، وعاد بعد ذلك ليعمل فى الجامعة الأهلية التى تحولت فى سنة ١٩٢٥ إلى جامعة وطنية، وقد عين بها أستاذا بأمر من الملك فؤاد، وكان جديرا بهذه المنزلة العلمية؛ لأنه منذ عودته أخذ ينشر ويكتب ويثير بين المفكرين قضايا متعددة فتحت

مجالا للنقاش والرد، وبذلك يكون طه حسين قد أحدث فى الحياة الفكرية الراكدة نشاطا وحيوية، وظل الرجل يواصل حياته الفكرية معتدا بنفسه وكرامته، ولذلك رفض ما طلبه منه وزير المعارف فى ذلك الوقت أن يمنح بعض المصريين درجة الدكتوراه الفخرية حينما كان عميدا لكلية الآداب، ولم يستجب لرغبته وتعرض بذلك لحرمانه من العمل فى الجامعة فاشتغل بالصحافة ورأس صحيفة كوكب الشرق وهى صحيفة وفدية، وكان عمله فيها من أسباب توثق علاقته برئيس الحزب وهو مصطفى النحاس رحمه الله، ثم انتسب لحزب الوفد وأصبح وزيرا فى آخر وزارة تولاها مصطفى النحاس قبل قيام ثورة يوليو ٥٢.

إن مؤلفات طه حسين متنوعة ومتعددة منها ما يتعلق بالفكر الإسلامى والأدبى والحضارى، فضلا عن مقالاته الكثيرة التى جمعت أخيرا فى نحو جزءين مما يدل على أن هذا الرجل عاش حياته كلها مخلصا للتراث العربى ومدافعا عنه، ولذلك كان يضيق بكل من يستعمل فى كتاباته ألفاظا عامية، ووقف موقفا يشهد له التاريخ حينما عارض من سعى لأن تكتب العربية بالحروف اللاتينية، ونجح فيما أصر عليه، بأن تظل العربية تكتب بالحروف التى كتبت لها منذ القدم، وبمناسبة مرور أربعين عامًا على وفاة هذا المبقرى الإنسان الذى عرفته عن كثب، رأيت أن أشارك فى ذكراه بهذا الكتاب الذى يضم مجموعة من الدراسات المجملة فى بعض القضايا التى تتعلق بحياة العميد، وثقافته مع الإشارة إلى ما أثير حوله من بعض المفكرين من نقد غير موضوعى.

ولعل في هذا الكتاب على صغر حجمه أن يكون مذكرًا للقراء والباحثين بالاهتمام بهذا الأديب العبقرى الذى كان لأسلوبه الأدبى وبخاصة فى الأيام تأثير بالغ فى توجيه ناشئة الكتاب على أن تكون كتاباتهم في عبارة رصينة ولغة عربية فصيحة.

لقد كان طه حسين يؤكد دائما على أن الأدب العربى الحديث لا غنى له عن الاعتماد على الأدب العربى القديم، والقول بإن هذا الأدب يهتم بالشكل دون المضمون غير صحيح، فكل التراث العربى من نثر وشعر يضم أفكارا وآراء لها قيمتها فى حياة المجتمعات الإنسانية، ولعل الذين يقرؤون ما كتبه الجاحظ فقط يغيرون رأيهم فيما تركه القدماء من تراث فكرى سيظل خالدا وباقيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

رحم الله العميد رحمة واسعة، وجزاه على ما قدم خير الجزاء،،

أ.د. محمد الدسوقى

طه حسين والتراث العربى

طه حسين عبقرية أدبية وفكرية معاصرة بلا مراء، فهذا القروى الضرير الفقير كان أول من حصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة، ثم عبر البحر ليواصل دراسته فى أعرق الجامعات الغربية، فنال منها أرفع الدرجات العلمية فى فترة زمنية وجيزة، ومن ثم أتيح له أن ينهل من ثقافة الغرب كما نهل من ثقافة الشرق، وأن يجمع فى قراءته بين التراث العربى، والتراث الأوربى، ولكن ما الطابع الغالب على ثقافة العميد وفكره، هل هو الطابع العربى، أو الطابع الأوربى وبخاصة الفرنسى؟

ويجدر قبل الإجابة الموضوعية عن هذه الإشارة إلى طرف من حياة طه حسين وآثاره، وبعض آرائه فى الأدب العربى المعاصر، فلذلك كله صلة حميمة بين الطابع الغالب على ثقافته وفكره.

لقد التحق طه حسين بالأزهر فى مستهل القرن الميلادى السابق بعد أن حفظ القرآن الكريم، وبعض المتون فى القرية، وأخذ يختلف إلى الدروس التى يلقيها الشيوخ، وإن كان كثير منها لم يكن يروقه؛ لأنه يتسم بالجمود والتقليد، ويهتم بالشكل دون المضمون غالبًا، وكانت دروس الأدب، وبخاصة دروس شيخه سيد المرصفى تستحوذ على إعجابه وحبه، ولعلها كانت من وراء عكوفه على قراءة الأدب

العربى القديم فى أمهات مصادره، كالأغانى والكامل وعيون الأخبار والعقد الفريد والبيان والتبيين وغير ذلك.

وقد أتيح للعميد وهو طالب فى الأزهر أن يتعرف إلى زميلين كانا يدرسان معه، وكانا مثله فى حب الأدب ومطالعته، وهما: أحمد حسن الزيات، ومحمود زناتى، وقد يسرت له معرفتهما أن يقرأ معهما الكثير من التراث العربى شعره ونثره.

ولأن طه حسين كان يتمتع بموهبة أدبية فطرية جاءت تلك القراءات فى التراث العربى لتدفع بهذه الموهبة نحو التألق والعطاء، وهو دون العشرين فقد أخذ يكتب فى الصحف ويقرض الشعر، وكان تشجيع أساتذته، كلطفى السيد وعبد العزيز جاويش من الأسباب التى جعلت العميد يخوض، وهو فى مرحلة الطلب، معارك أدبية مع المنفلوطى وغيره.

ومع أن طه حسين كان يضيق بمنهج الدراسة فى الأزهر ظل يديم الاختلاف إلى حلقات الشيوخ، ولكنه مع هذا التحق بالجامعة الأهلية بعد إنشائها فى عام ١٩٠٨م، وجمع فى طلبه للعلم بين دروس الأزهر ومحاضرات هذه الجامعة، بيد أنه قاطع الأزهر وفرغ للجامعة بعد أن حيل بينه وبين الحصول على العالمية، بسبب جرأته فى نقده اللاذع لشيوخه.

وفى الجامعة الأهلية كان طه حسين النموذج الأمثل للطالب الجامعى فى جده وتحصيله العلمى، فلا غرو أن كان أول المتخرجين فيها، كما كان أول من نال منها درجة الدكتوراه.

وسافر بعد ذلك إلى فرنسا، وتفتحت أمامه فى السوربون آفاق جديدة فى الفكر والأدب، وبعد نحو خمس سنوات أنفقها فى الدرس والبحث والاطلاع على الثقافات والفنون الغربية عاد إلى وطنه بعد أن حصل من هذه الجامعة العريقة على الليسانس ودبلوم الدراسات العليا، ثم الدكتوراه.

وعمل بعد عودته أستاذا بالجامعة، فعميدا لكلية الآداب، فمديرا لجامعة الإسكندرية، ثم وزيرا للمعارف، ورئيسا للجنة الثقافية بالجامعة العربية، وأخيرا رئيسا للمجمع اللغوى.

وكان طه حسين طوال حياته منذ عمله بالجامعة طاقة فكرية مبدعة فجرت العديد من القضايا التى شغلت المفكرين، وأهل الرأى، أحدثت فى الحياة الأدبية والفكرية حيوية دافقة، وجدلا علميا مثمرا، كما أنها وجهت الأنظار إلى النقد والتمحيص وتطبيق المناهج العملية فى الدراسات الأدبية.

وقد كتب مئات المقالات، وألف عشرات الكتب، وألقى الكثير من المحاضرات العامة، واشترك فى بعض الندوات والمؤتمرات، وهو فى كل ذلك كان المفكر الذى يعتز كل الاعتزاز بتراثه العربى فى شتى مجالاته، ويبدو ذلك جليا من استقراء آثاره، فهذه الآثار على تنوعها يجمع بينها قاسم مشترك وهو التراث العربى، وهذا لا يعنى أنها ترتبط بالحاضر، أو تخلو من موجهات غربية، فكل تراث العميد يمثل حركة فكرية ترفض التقليد والتبعية، وتسعى للتطوير والتغيير، بيد أنها مع هذا ترتد فى جذورها إلى أصالتها التراثية.

إن كل ما كتبه العميد يمكن أن يصنف طوعا لموضوعاته قسمين: قسما تناول التراث العربى، وقسما تناول الأدب والفكر المعاصر بوجه عام.

والقسم الأول: جاء بعضه دراسات فى الأدب، وبعضه الآخر دراسات فى التاريخ.

وأما القسم الثانى: فيشمل القصص الأدبية والسيرة الذاتية، وآراء العميد فى بعض الشعراء والكتاب المعاصرين، وكذلك آراءه فى الثقافة ومستقبلها فى العالم العربى.

وللعميد بالإضافة إلى هذا ما يمكن أن يسمى بالأدب السياسى، وهو كل المقالات التى نشرت فى الصحف والمجلات، وغلب عليها طابع الصراع الحزبى. وهذا اللون من الأدب لم يجمع بعد وما زال مفرقا فيما نشر فيه.

ويمكن أن يندرج تحت القسم الثانى ما كتبه العميد فى الفكر والأدب اليونانى القديم، وما ترجمه من قصص لبعض الكتاب الفرنسيين. وبعد ما كتبه فى التراث العربى أكبر فى الكم مما كتبه فى الأدب، والفكر المعاصر، كما يعد أكثر مؤلفاته اشتمالا على الآراء والنظريات التى كان لها دويها الهائل فى الحياة الثقافية، وأثرها الفاعل فى تحريك الأذهان والعقول نحو التجديد والتطوير.

وإذا كانت صلة العميد بالتراث العربى بدأت منذ أيام الطلب فى الأزهر. فإن هذه الصلة من حيث الكتابة والتأليف بدأت برسالة الدكتوراه. التى تقدم بها للجامعة المصرية، وكانت عن رهين المحبسين

أبى العلاء المعرى، وكان العميد يحب هذا الشاعر، وكان يود أن يسلك سبيله فى الحياة فلا يتزوج، غير أن حبه لزوجته حين التقى بها فى فرنسا غلب على مذهب أبى العلاء، ولهذا لم يكتف طه حسين برسالة الدكتوراه عن شاعر المعرة، وإنما كتب عنه «مع أبى العلاء فى سجنه»، وهو دراسة أدبية ونفسية لشخصية أبى العلاء، كما كتب «صوت أبى العلاء»، وهو تفسير أدبى لطائفة من شعر صاحب اللزوميات، وطه حسين فى هذا الكتاب يقدم النص الشعرى فى عبارة نثرية تكاد تفوق هذا النص طلاوة وبلاغة.

وما كتبه العميد عن أبى العلاء يمثل بعضا من الدراسات الأدبية للتراث العربى، ويمثل البعض الآخر ما كتبه فى الشعر الجاهلى والأدب فى صدر الإسلام، وعصر بنى أمية، والعصر العباسي.

وكتاب فى الشعر الجاهلى أو فى الأدب الجاهلى كما يسمى بعد تلك الثورة العارمة على ما ورد فيه تنهض فكرته على أساس أن الشعر فى العصر الجاهلى موضوع ومن ثم لا سبيل للتعويل عليه فى دراسة عصر ما قبل الإسلام، وأن القرآن الكريم هو وحده المصدر الصحيح الذى يمدنا بمعلومات عن العرب فى الجاهلية.

ولست هنا فى مجال تفصيل القول فى هذه الفكرة، وما وجه إليها من مآخذ، وما وجه الصواب والخطأ فيها، وإنما كل الذى يعنينى أنها لون من ألوان الاهتمام بالتراث العربى الأدبى فى بداياته، وأن طه حسين قد عاش مع هذا التراث يدرسه، ويدلى برأيه فيه.

وعن عصر صدر الإسلام والعصر الأموى والعباسى كتب العميد دراسات وأبحاثًا كان ينشرها فى السياسة الأسبوعية والجهاد، ثم جمعت بعد ذلك فى كتاب يحمل عنوان «حديث الأربعاء»، وفى هذا الكتاب نظرات جديدة فى الشعر الجاهلى تشير إلى أن العميد عدل عن بعض آرائه فى هذا الشعر، فلم يعد كله منحولا لديه.

وأما كتاب من حديث الشعر والنثر، فقد عرض فيه العميد لمكانة الأدب العربى فى العالم، ثم تناول الحياة الأدبية فى العصر العباسى من خلال دراسة بعض الشعراء، كأبى تمام والبحترى وابن الرومى.

وخص طه حسين «المتنبى» بدراسة مطولة جاء عنوانها «مع المتنبى»، وكان العميد كما قال لى: لا يعجبه شعر هذا الشاعر؛ كما لا تعجبه شخصيته.

ولم تخل كتب العميد الأخرى، مثل، «خصام ونقد»، و «ألوان» من الحديث عن بعض جوانب التراث، بالإضافة إلى ما اشتملت عليه من دراسات عن الأدب العربى المعاصر، ونماذج من الأدب العربى.

هذا ما يتعلق بالجانب الأدبى فى مؤلفات طه حسين عن التراث العربى، أما الجانب التاريخى فى هذا التراث، فيتجلى فيما كتبه عن السيرة النبوية والخلفاء الراشدين ورسالته للدكتوراه التى قدمها لجامعة السوربون، وكانت عن ابن خلدون.

وكان العميد قبل أن يكتب فى السيرة النبوية قد اتفق مع زميليه الأستاذ عبد الحميد العبادى، والدكتور أحمد أمين، على دراسة الحياة

الأدبية والعقلية والتاريخية للأمة الإسلامية؛ وعهد إلى العميد بالكتابة عن الحياة الأدبية على حين تولى الدكتور أحمد أمين الكتابة فى الحياة العقلية، وقام الأستاذ العبادى بالكتابة فى الحياة التاريخية.

وكتب العميد فى السيرة النبوية كتابين، هما: «الوعد الحق» و «على هامش السيرة»، وقد قال لى يومًا معللا تأليفه لكتاب على هامش السيرة: ما قصدت إلا إحياء الأدب القديم، وإحياء ذكرى العرب الأولين بعد أن قرأت السيرة فامتلأت بها نفسى، وفاض بها قلبى، وانطلق بها لسانى، إن هذا الكتاب صورة يسيرة طبيعية لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ السيرة التى لا أعدل بها كتبا أخرى مهما تكن، والتى لا ينقضى حبى لها وإعجابى بها وحرصى على أن يقرأها الناس.

والجدير بالإشارة إليه حول هذا الكتاب أن العميد كان يأخذ بالحقيقة التاريخية عند الحديث عن رسول الله ﷺ، ولكنه فيما وراء ذلك كان يعمل خياله الأدبى، ومن ثم حمل الكتاب ذلك الاسم.

وعن الخلفاء الراشدين كتب العميد الشيخين، والفتنة الكبرى فى جزأين: أحدهما عن «عثمان»، والآخر عن «على وبنوه».

وكان العميد قبل سفره إلى إيطاليا فى صيف ١٩٧٢م، وقد حدثنى حول رغبته فى قراءة بعض أجزاء من تاريخ الطبرى من أجل كتابة الجزء الثالث من الفتنة الكبرى، وكنت قد قرأت له شرح نهج البلاغة لهذا الغرض، واتفق معى أن تكون هذه القراءة بعد عودته من رحلته، غير أنى لم ألق العميد منذ ودعته يوم سفره فى شهر يونيو من هذا العام إلى أن لقى ربه، وما أظن أحدا قرأ له شيئا من تاريخ الطبرى.

على أن العميد كان يطمع فى أن ينسئ الله فى أجله، ويسبغ عليه نعمه العافية ليكمل كتاب الأيام، ويكتب الجزء الثالث من الفتنة الكبرى، ولكن لكل أجل كتاب.

وأما الدراسة التي كتبت عن ابن خلدون فهى كما أومأت آنفا كانت رسالة الدكتوراه إلى جامعة السوربون، وقد كتبت بالفرنسية، ثم ترجمت إلى العربية، وفى هذه الرسالة يتعرض العميد لأثر ابن خلدون فى علم الاجتماع، وهل يعد مؤسسا لهذا العلم أو لا؟.

تلك مؤلفات العميد عن التراث العربى، وهى ليست وحدها آية على اهتمامه بهذا التراث، وإنما عبر عن هذا الاهتمام أيضا أنه قاد حركة علمية نشطة لإحياء التراث العربى ونشره؛ فقد عمل على إحياء أدب المعرى. واشترك فى إخراج موسوعة ابن سينا الكبرى، وهى كتاب الشفاء وكتب مقدمة للجزء الأول من هذه الموسوعة، ويوم أن كان وزيرا للمعارف وجه بعض البعوث للبحث عن كنوز التراث العربى فى مدن الخليج. وقد اهتدت هذه البعوث إلى مخطوطة نادرة فى الفكر المعتزلى، وهو كتاب «المغنى» للقاضى عبد الجبار. وإن كان ما عثر عليه من هذا الكتاب بعض أجزائه.

والذى لا مراء فيه أن هذا الاهتمام بالتراث العربى بحثا فيه وكتابة عنه ونشرا له يدل على علاقة العميد الوثيقة بهذا التراث، وحبه لمعايشته والاغتراف منه، وقد ظل هذا الحب ملازمًا له إلى آخر أيامه، وأذكر أنى قرأت له فى العقد الأخير من عمره العديد من أمهات كتب

التراث، وبعض هذه الكتب ـ كالكامل للمبرد ـ قرأتها له أكثر من مرة؛ لأنه كان يرغب في هذا.

وهذه العلاقة بالتراث منذ كان العميد طالبًا بالأزهر كان لها أثرها في طبع أسلوبه في كل آثاره بطابع الأصالة الأدبية، وليست ظاهرة التعبير عن الفكرة الواحدة أو المعنى الواحد في أسلوب العميد بأكثر من صياغة إلا دلالة على الثراء اللغوى، والإحاطة الدقيقة بالمفردات والاشتقاقات، وهذا الثراء اللغوى مرده إلى حب التراث وقراءته في نهم، وهذا يعني: أن أثر التراث العربي في فكر العميد وأدبه شمل كل مؤلفاته حتى ما كان مترجما منها من لغة غير عربية.

ولحب العميد للتراث العربي وقف من الذين ينادون بإحلال العامية محل الفصحى موقفا صارما، هاجمهم في عنف، وفند مزاعمهم في قوة، ولذلك كان لا يروقه من بعض الكتاب والأدباء أن يستخدموا بعض المفردات العامية، كما كان يفعل يوسف إدريس، والأستاذ يحيى حقي – رحمهما الله..

ولحب العميد للتراث كذلك يرى أن الأدب العربي المعاصر لن يبلغ مبلغ الآداب العالمية إلا إذا قرأ الأدباء الأدب العربي القديم والأدب الغربي المعاصر والآداب الأوربية، فهو يجعل التراث العربي الأساس الذى يقوم عليه أدب جدير بالبقاء، وجدير بأن ينافس الآداب العالمية، ويرد على الذين يدعون بأن التراث يخلو من المضمون، فمن يقرأ مثلا مؤلفات الجاحظ فإنه لا يمكن أن يذهب إلى أن هذه المؤلفات لا مضمون

لها، ويؤكد العميد أن قراءته الأدب الغربي لا تجعله في غنى عن قراءة الأدب العربي القديم؛ لأن الأديب الجدير بهذا الاسم هو الذي يجمع في ثقافته بين التراث العربي من جهة والتراث الغربي من جهة أخرى.

وحاصل القول إن طه حسين رغم ثقافته الفرنسية، وأن حياته في بيته كانت شبه غربية، فإن الرجل كان في جوهر ثقافته عربيا قحا، وأن أسلوبه في كل ما كتب يعبر عن هذه الثقافة أصدق تعبير.

لقد بدأ طه حسين حياته الأدبية والفكرية من صحن الأزهر، وعاش عمره كله لا يعدل بالتراث العربي بديلا، ويرى أن الفصحى وحدها لغة العلم والأدب، وأن تراثنا غني بالمضامين وليس كما يزعم الجاهلون به لا مضمون له، كما كان يرى أن الأدب العربي المعاصر يعاني من الضعف والضحالة؛ لعدم قراءة التراث. وأن السبيل لأن يحتل هذا الأدب مرتبة عالمية بين الآداب هو الانتفاع بالتراث. وربط الحاضر بالماضي على هدى وبصيرة، ولهذا كان الطابع الغالب على فكر طه حسين وأدبه هو الطابع العربي الأصيل، ولم تكن ثقافته الغربية لديه إلا وسيلة لإثراء ذلك الطابع وتجديده ونهضته.

أما ما أثير حول آراء العميد في التراث وما اتهمه البعض من اتهامات تنال من عقيدته وتطعن في عروبته، فلذلك كلمة أخرى إن شاء الله.

* * *

تعليقات وأقوال مأثورة لـ طه حسين

هناك نواح كثيرة فى حياة الدكتور طه حسين لا يعرفها الكثيرون.. كان عميد الأدب العربى لا يترك مناسبة تمر وهو يستمع إلى ما يقرأ عليه، دون أن يدلى بتعليق.. وكانت له أقوال مأثورة فيما كان ينقل إلى فكره ورأسه المليء، من معلومات حوتها الكتب.. وما أكثر الكتب التى قرئت، وأعيدت قراءتها عليه، هذا ما يرويه كاتب زامله طويلا.

أتيح لى أن ألقى عميد الأدب العربى المرحوم الدكتور طه حسين وأن أعرفه وأنا أعمل معه كسكرتير فترة غير قصيرة، بدأت فى أواخر سنة ١٩٦٤م، وامتدت إلى صيف ١٩٧٢م، أى: قبل وفاة العميد بنحو عام.

والحقيقة أن السنوات الأربع الأولى لم أعمل فيها مع العميد سكرتيرا، فقد كان الأستاذ فريد شحاتة ما زال يعمل معه، ولكنى كنت أذهب إلى العميد فى هذه السنوات يوما كل أسبوع على الأقل وهو يوم إجازة فريد، بالإضافة إلى إجازته السنوية، وكانت نصف شهر، وكانت تبدأ عقب عودة العميد من رحلته الصيفية غالبا. فضلا عن الطوارئ المختلفة التى كانت تحول بين فريد وذهابه إلى العميد.

كالمرض وإنجـاز بعض الأعمال الخاصة، وما أكثر تلك الطوارئ، وبخاصة طوارئ المرض، وكان العميد يعتقد أن سكرتيره يفتعل المرض، وأنه أصبح بهذا السلوك ـ على حد قول العميد ـ لا يطاق.

كيف بدأت العمل معه:

وبعد أن ترك فريد العمل مع الدكتور طه حسين فى أواخر سنة ١٩٦٨م، كان علىّ أن أذهب إلى العميد يوميا، وأن أتولى مهمة السكرتير الخاص له، رغم أن هناك عددا من الشباب جاء ليقوم بهذه المهمة، غير أنهم ما كانوا يستمرون معه، فقد كان الواحد منهم يعمل أسبوعا أو أسبوعين، ثم يعتذر لأسباب لا مجال للحديث عنها فى هذه المقالة.

وكان بعض هؤلاء يعمل مع العميد قبيل سفره إلى أوربا، ويحرص على السفر معه، ثم لا يستمر بعد العودة من الرحلة، وكان العميد يدفع كل نفقات الرحلة لسكرتيره بالإضافة إلى راتبه، عن مدة الرحلة، وكان هذا الراتب يدفع عن المدة كلها قبل السفر، ومن ثم كان حرص بعض هؤلاء الشباب على السفر مع العميد.

الكتب التى قرأتها له:

كنت أمكث مع العميد كل يوم أذهب إليه فيه خمس ساعات نصفها فى الصباح ونصفها الآخر فى المساء، وكنت أقرأ له الكتب والصحف العربية، وقد قرأت معه كتبا كثيرة أغلبها كتب قديمة يتألف معظمها من عدة أجزاء، وقرأت معه بعض هذه الكتب أكثر من مرة.

الكتب التى قرأتها مع العميد أهمها ما يلى:

الكامل للمبرد، قرئ أكثر من مرة، شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، عيون الأخبار لابن قتيبة، قرئ أكثر من مرة، الآمالى للقالى، مختار الأغانى لابن منظور، بعض أجزاء من الأغانى للأصفهانى، العقد الفريد لابن عبد ربه، الحيوان للجاحظ، البيان والتبيين للجاحظ، الفرق لأبى خلف الأشعرى، إعجاز القرآن للباقلانى، مجالس ثعلب، الأدب الجغرافى عند العرب للمستشرق الروسى كراتشكوفسكى، ١٥٠ صحابيا اختلفوا، لمؤلف عراقى معاصر، مع الإنسان فى الحرب والسلام لفتحى رضوان، النبوغ المغربى فى الأدب العربى لعبد الله كنون، ظهور الإسلام للشيخ عبد الحميد بخيت، قمم أدبية للدكتورة نعمات فؤاد، محمد رسول الله لأحمد تيمور، أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية للشيخ أحمد حسن الباقورى، قرئ أكثر من مرة، وقد كتب العميد مقدمة له، وتعد هذه المقدمة آخر مقال كتبه العميد، وبعض مؤلفات الأساتذة يوسف السباعى وثروت أباظة وأنيس منصور وطاهر الطناحى ونجيب محفوظ.

أمثلة من تعليقات طه حسين:

وما كان العميد وأنا أقرأ معه هذه الكتب سواء القديم منها والمعاصر يكتفى بالاستماع والإنصات؛ فقد كانت له تعليقاته وانتقاداته المختلفة، وما كان ينتهى من كتاب دون أن يومئ إلى رأيه فيه، وكان الرجل فى

بعض تعليقاته يشركنى فى الحديث معه، وأحيانا يطلب منى الرجوع إلى بعض المصادر لتفسير عبارة، أو التأكد من معنى، ومن ذلك مثلا :

جاء فى كتاب مختار الأغانى الجزء الخامس الخبر التالى:

كان خطيب حمص يصلى على النبى ﷺ ثلاث مرات فى خطبته، وأهل حمص كلهم من اليمن، فتعصبوا على الخطيب وعزلوه، فقال فيهم الشاعر ديك الجن:

سمعوا الصلاة على النبى توالى   فتفـرقوا شيعـًا وقالــوا لا لا
ثم استمرعلى الصـلاة أمـامهم   فتحزبوا ورمى الرجال رجالا
شاهت وجوهكم وجوه طــالما   رغمت معاطسها وساءت حالا

وعقب العميد على هذا الخبر بقوله: هؤلاء قوم سفهاء أو جهلاء، وهم بعصبيتهم هذه ليسوا من الإسلام فى شىء.

وورد فى كتاب الأغانى الجزء الثامن عشر بيتان لعمران بن حطان هما:

لا يعجز الموت شىء دون خالقه   والموت فـان إذا ما ناله الأجل
وكل كرب أمــــام الموت متضع   للموت، والموت فيما بعده جلل

فطلب منى العميد أن أقرأهما أكثر من مرة.

وفى هذا الجزء من الأغانى أيضا جاء أن سعيد بن حميد حفظ أرجوزة سمعها مرة واحدة، وهى نيف وعشرون بيتا، فقال العميد: «لقد كنت أسمع القصيدة مرة واحدة فأحفظها، وكان أستاذى الشيخ سيد المرصفى يقول لى: أنت مسئول عن حفظ ما يلقى من النصوص،

ثم أخذ العميد يتلو قصيدة طويلة، وكان ينشدها فى هدوء فقلت له بعد أن انتهى من إنشادها: «هل هذه القصيدة من قصائد الحماسة»؟ فقال: «لا، ولكن المبرد ذكر منها بيتين فى الكامل، ثم أكملها الشيخ المرصفى فى رغبة الأمل».

والجدير بالإشارة إليه أن هذا الجزء من الأغانى قرئ فى شهر مايو سنة ١٩٧٢م.

وكان العميد فى السنوات الثلاث الأخيرة من عمره ينسى بصورة غريبة، كان يأتيه الزائر - وهو صديق حميم له - ثم يخرج فيسألنى فور خروجه: «من كان هنا؟» فإذا قلت له: «فلان» قال: «ولماذا أتى؟».

وكان يطلب منى أن أضع فى جيبه منديلا أو حافظة نقوده، وما أكاد أجلس حتى يسألنى: «ما هذا الذى فى جيبى؟» وكانت هذه الظاهرة تسبب لى بعض الحرج حين يأتيه زائر فى المساء، ويتناول الحديث بينهما ما نشرته الصحف من أنباء فيقول العميد:

«إن الدسوقى لم يقرأ لى هذا الخبر أو ذاك»، فإذا قلت: «إننا قرأنا هذه الأخبار»، أصر على أننا لم نقرأها، فلا أجد بدا من الصمت.

ولكن هذه الظاهرة كانت تختفى حين نشرع فى قراءة كتب الأدب. ويبدو العميد وهو ينصت لما أقرأ وكأنه متحفز لقول شيء، فإذا بدأت أقرأ قصيدة، ذكرت فى كتاب قديم أو حديث، أخذ يتلوها، فأمسك عن القراءة وأنصت له، فلا يخرم منها حرفا، ثم يقول: لقد حفظت هذه القصيدة وأنا طالب فى الأزهر الشريف، أو فى الجامعة وإذا جاءت

إشارة على خبر من الأخبار أخذ يفيض فى الحديث عن هذا الخبر إفاضة دقيقة شاملة، فتعجب لهذه الحافظة القوية والذاكرة الواعية.

وردت فى كتاب مجالس ثعلب العبارة التالية: قال أبو العباس فى قوله عز وجل: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [سورة الغاشية: آية ١٦]. قال: الزرابى: الطنافس، واحدتها زربية، فعقب العميد على هذا بقوله: إن الزرابى تستعمل بهذا المعنى فى تونس.

وقلت للعميد عن كتاب مجالس ثعلب: إن هذا الكتاب لا يختلف فى منهجه عن كتاب الآمالى للقالى. فقال: «لكن كتاب (الآمالى) أخف ـا من كتاب (المجالس)».

رأيه فى كتاب «نهج البلاغة»:

ويرى العميد أن كتاب نهج البلاغة ليس كله للإمام على كرم الله وجهه فالنصوص المنسوبة للإمام على فى هذا الكتاب يغلب عليها طابع الصنعة، وما كان الإمام يخطب فى الأمر كعادة العرب جميعا. ويقول العميد: «إن فى بعض كتب التاريخ مثل الطبرى والبلاذرى خطبا للإمام على، وهذه يمكن قبولها وصحة نسبتها إليه، ثم أليس من الغريب أن تكون الأحاديث قد رويت بالمعنى والمسلمون أحرص عليها من أى كلام آخر، ويقال بعد ذلك: إن هذه الخطب المنمقة للإمام على، فضلا عن شيوع كلمات فى هذا الكتاب لم تظهر إلا فى زمن المتكلمين، والذى أرجحه أن نهج البلاغة من تأليف الشريف الرضى، والمغفل هو ابن أبى

الحديد؛ لأنه يعتقد أن ما يشرحه خطب للإمام علي، ولذلك يتكلف في شرحه ويستطرد استطرادات لا معنى لها».

وورد في أثناء شرح ابن أبي الحديد بيتان للمتنبي فقال العميد بعد قراءتهما: لا يعجبني المتنبي، فقلت له: شخصيته أو شعره، فقال: الاثنان، لقد كان وصوليا، مدح سيف الدولة، فلما لم يعطه ما أراد هجاه هجاء مرا، وفضل عليه العلج الأسود كافور، وهجا هذا؛ لأنه لم يعطه هو الآخر ما أراد.

وكان العميد يعجب أشد الإعجاب بكتاب الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي، ويثني عليه ثناء مستطابا. فالكتاب يدل على مجهود ضخم، وصبر على متاعب البحث كما يدل على اطلاع واسع وإلمام واف بالتراث العربي في مختلف ألوانه العلمية، ولا يغض من قيمته أن قلم المؤلف زل عن غير قصد لعدم فهمه لبعض الألفاظ القرآنية، ومن ثم لم يستسغ العميد ما كتبته الدكتورة بنت الشاطئ حول هذا الكتاب، فهي لم تكن منصفة ولا مقدرة لهذا العمل الجليل في بابه، وكانت تتصيد المثالب وتضخم العيوب، ولذا جاء تعليقها الذى نشر ملحقا بالجزء الثاني غير موضوعي.

وتطرق الحديث إلى الكلام عن الدكتورة بنت الشاطئ، فقال العميد:

«إن عائشة تلميذتي درست عليّ الماجستير فالدكتوراه، ولكنها عاقة كسائر تلاميذى، فهي لا تزورني في هذه الأيام، ثم إن ما تكتبه في الأهرام لا يعجبني وبخاصة ما تكتبه حول القرآن الكريم وتفسير

بعض آياته، فهي تلف وتدور حول النص القرآني، ولا هم لها إلا إيراد النصوص القرآنية الكثيرة ثم لا تقدم شيئا ذا بال بعد ذلك».

رأيه في الاستشراق والمستشرقين:

وأتاح كتاب الأدب الجغرافي للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي فرصة الحديث عن الاستشراق والمستشرقين بوجه عام، وكان العميد يرى أن المستشرقين خدموا الثقافة الإسلامية والأدب العربي خدمة جليلة، ولكن هذا يجب ألا يغمض عيوننا عن نشاطهم المريب في مجال السياسة الاستعمارية، ثم قال: أذكر مثلا أن ماسنيون وهو مستشرق فرنسي مشهور، وكان عضوا في مجمع اللغة العربية، وله أبحاث في الدراسات الإسلامية، هذا المستشرق كان موظفا في إدارة المخابرات في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان إذا جاء إلى مصر فإنه يسعى إلى مقابلة الملك فؤاد، ثم من بعده فاروق، ولكن بعد قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م حاول مقابلة عبد الناصر فلم يفلح.

وصمت العميد برهة، ثم قال: إن مستشرقا فرنسيا جاء إلى القاهرة ومعه زوجه وأسلم والتحق بالأزهر، وادعى أنه كفيف، وكانت زوجتي تعطف عليه، وتتألم لحاله، وقد زارني في بيتي كثيرا، وقد تبين بعد ذلك أن هذا المستشرق ليس كفيفا، وأنه في سبيل القيام بوظيفة التجسس كاملة وحتى لا يظهر أمره، أجريت له عملية جراحية بدا بعدها وكأنه كفيف لا يبصر، وقد رحل هذا المستشرق عن مصر دون أن يحقق ما جاء هو وزوجه من أجله.

طه حسين يحب لحم الخيل:

وقال العميد ونحن نقرأ عن الخيل فى كتاب عيون الأخبار: أظنك لم تأكل الخيل يوما، قلت: نعم، قال: لقد أكلتها فى باريس وطعمها لذيذ جدا، وعرضت علينا الضفادع فرفضنا أكلها، فقالت لنا مديرة المطعم: أنتم لا تعرفون الطعام الجيد، ثم قال: وقد أكلت لحوم الجمال كثيرا، وأذكر أنى كنت بعد أن طلبت العلم فى الأزهر أطلب من والدتى أن تعد لى لحم الجمال والسويق لأتشبه بالعرب فى أكلهم، لأكون عربيا قحا.

وبعد وفاة المرحوم الأستاذ أمين الخولى فى شهر مارس سنة ١٩٦٦م، نشر عنه مقال فى عدد الأهرام الأسبوعى، وما كدت أفرغ من قراءة هذا المقال حتى قال لى: أحضر لنا كتاب المقالات والفرق علنا ننسى هذه الأحزان، فقلت: أى أحزان؟ فقال: أحزاننا على هؤلاء الذين يذهبون واحدا إثر آخر، إن الأستاذ أمين الخولى كنت أعزه جدا وأحبه وقد تألمت لموته، واعلم أنى الذى نقله إلى الجامعة كما نقلت الدكتور عبد الوهاب عزام.

وكتاب المقالات والفرق لأبى خلف الأشعرى يشتمل على طائفة من الآراء للفرق الإسلامية المختلفة، وكثير من هذه الآراء تثير الضحك، وكان العميد يضحك من كل قلبه عندما أقرأ له رأيا غريبا لفرقة من الفرق، ولهذا طلب منى أن أقرأ له فى هذا الكتاب عله ينسى آلام الحزن على هؤلاء الذين اختطفهم الموت واحدا إثر آخر.

وقد ترجمت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى كتابها «قمم أدبية» لطائفة من أعلام الأدب والفكر المحدثين، جاء فى ترجمتها لأحمد

لطفى السيد أنه سقط فى انتخابات سنة ١٩١٣م؛ لأن الإنجليز قد أوعزوا بسقوطه، ويعقب الدكتور طه حسين على هذا بقوله: هذا غير صحيح، ولكنه سقط لأن منافسه ولا أذكر اسمه الآن، كان رجلاً ماكرًا، استغل سذاجة الناخبين وجهلهم، فقال لهم: إن لطفى ينادى بالديمقراطية، ومعناها: أن تتزوج المرأة أربعة رجال، كما يتزوج الرجل أربع نساء، وهذا فى نظر الناخبين خروج على الدين، وأكد لهم هذا أنهم ذهبوا إلى لطفى السيد وسألوه: هل ينادى حقًا بالديمقراطية، فقال لهم: نعم، دون أن يسألوه عن معنى الديمقراطية، ومن هنا سقط فى الانتخابات.

لا يقرأ عليه كتاب دون أن يعلق عليه:

وهكذا كان العميد لا يقرأ كتابا دون أن يعلق عليه أو يبدى رأيه فيه. وما أوردته فى هذه الكلمة ليس إلا بعضًا مما سمعته منه، وأود أن أشير إلى أن العميد ما كان يهش لما يكتبه الأدباء المحدثون، فإنتاجهم لم يكن يروقه لضعف مستواه اللغوى والفنى، وكان يضيق كل الضيق بهؤلاء الكتاب الذين يكثرون من الكلمات العامية فى أعمالهم الفنية، ويرجع هذا إلى أن الكتاب المحدثين لا يقرأون الأدب الحديث كما ينبغى أن تكون القراءة.

وكان العميد يرى أن العمل الفنى إذا نشر مسلسلا فى صحيفة يومية. فإن هذا يؤثر على قيمته الفنية، ومعظم الكتاب المحدثين يفعلون ذلك.

تمتعه بسماع القرآن الكريم:

إن العميد فى العقد الأخير من عمره كان يجد لذته وراحته فى القراءة وسماع القرآن المرتل، وحين نصحه الطبيب فى سنواته الأخيرة بالراحة وعدم الإكثار من القراءة، قال: هذا مستحيل؛ لأنه لا معنى لحياتى إذا لم أقرأ كما أريد، ومن ثم كان إذا أتاه زائر وأطال الجلوس، ثم انصرف يقول لى: لقد ضاعت الليلة، لم نقرأ شيئا إن فلانا هذا كثير «الرغى» (الثرثرة)، كما كان لا يرتاح لكل من يعمل معه دون أن يكون مجيدا للعربية إجادة تامة ولديه القدرة على القراءة بها لفترة طويلة، وقد قال لى يوما ونحن نتحدث عن أخطاء بعض القارئين له: إنى أسمع الكلمة فأعرف أنها خطأ وأتلقاها بالنطق الفصيح الصحيح، فقلت له: ما سبب هذه السليقة اللغوية لديكم؟ قال: لا أدرى فقلت: يبدو أن حفظكم للقرآن الكريم، ثم قراءتكم الأدب العربى القديم ودراسته سبب هذا، قال: يجوز.

رحم الله عميد الأدب العربى، وجزاه كفاء ما قدم خير الجزاء..

* * *

عندما تحدث طه حسين عن كتبه

ترك عميد الأدب العربى المرحوم الدكتور طه حسين عشرات الكتب والمؤلفات التى تشهد بعمق ثقافته وغزارة معرفته وسعة اطلاعه سواء في العربية أو غيرها من اللغات التي كان يجيدها وبخاصة الفرنسية، فهذه المؤلفات تناولت مواضيع وقضايا متنوعة فى الأدب واللغة والترجمة والتاريخ والتربية والسياسة والدراسات الإسلامية بوجه عام.

ولست فى هذه الكلمة دارسا لبعض هذه المؤلفات، فتلك مهمة غيرى من الباحثين المتخصصين، بيد أنى أود هنا تسجيل ما سمعت من العميد حول كتبه، فقد أومأ فى حديثه عنها إلى بعض الحقائق التى تلقى مزيدا من الضوء عليها.

على أن العميد فى حديثه عن كتبه لم يتناول كل مؤلفاته، وإنما أشار إلى سبعة منها وهى: تجديد ذكرى أبى العلاء - فى الشعر الجاهلى حديث الأربعاء - الأيام - على هامش السيرة - أحلام شهر زاد - أديب.

وتجديد ذكرى أبى العلاء أول كتاب ألفه العميد وحصل به على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة، ويتحدث عنه فيقول:

لقد قرأ لى الأستاذ المرحوم عبد الرحيم محمود «اللزوميات» و «سقط الزند»، وكان يتغنى بالشعر وهو يقرؤه، ثم كتبت بعد ذلك رسالتى عن أبى العلاء.

لم يتراجع عن رأيه:

وقرأت للعميد يوما خبرا في صحيفة عن الزواج ومشكلاته فى بعض دول العالم فقال: كان مذهبى هو مذهب أبى العلاء فى العزوف عن الزواج، قلت: لماذا أخذت بهذا المذهب؟ قال: لأنى مثل أبى العلاء فى العاهة، ولأنى أحببته وكتبت عنه رسالتى للدكتوراه، قلت: يبدو أن زوجتكم كانت السبب في عزوفكم عن مذهب أبى العلاء، قال: إن زوجتى كانت تقرأ لى فى الجامعة بأجر، فأعجبنى صوتها وطريقة حديثها فأحببتها وغلب حبها على مذهب أبى العلاء، فطلبت منها الزواج فاستشارت بعض أهلها، فأشاروا عليها بعدم الزواج منى؛ لأنى أجنبى وكفيف، ولكنها لم تأخذ بمشورتهم، قلت: لو كان قدر لكم الزواج بامرأة أخرى فهل كان سيؤثر هذا عليكم؟ قال: بالطبع لقد قرأت لى زوجتى الأدب الكلاسيكى الفرنسى، وعاونتنى فى دراسة اللغة اللاتينية، وفتحت أمامى آفاقا فكرية، وأثرت فى ثقافتى وأدبى تأثيرا واضحا.

وأما كتاب «فى الشعر الجاهلى» فإن ثورة بعض الطوائف عليه لم تكن بسبب قضية انتحال هذا الشعر، فليس العميد أول من آثار هذه القضية أو تحدث عنها، وليس القول بها داعية إلى الاتهام بالكفر

والزندقة ومعاداة الإسلام، ولكن الإشارة الخطيرة في هذا الكتاب جاءت عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل، فقد قال العميد عنهما: للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما، ولكن العلم لم يثبت وجودهما.

وسألت العميد: ماذا تعني بقولك أن العلم لم يثبت وجودهما؟ قال: أقصد أنه ليست هناك آثار ولا حفريات تدل على وجودهما.

هذه الإشارة ونحوها أثارت الرأي العام، وبخاصة رجال الأزهر؛ إذ ظنوا أن العميد ينكر أخبار القرآن الكريم، غير أنه كما قال لي: يعرض قضية من وجهة نظر النصوص المقدسة والعلم، ومن ثم لم يجد القضاء فيما كتب العميد ما يدل على إنكاره لأخبار القرآن فقضى ببراءته.

وإذا كان الأستاذ سعيد الأفغاني في كلمته المنشورة بعدد يناير المنصرم من العربي تحت عنوان «إنصافا لطه حسين»، قد ذكر فيما رواه عن الدكتور الحوفي أن العميد لم يرجع عن رأيه في هذا الموضوع، فلم أسمع منه ما يفيد أنه يرى أن الشعر الجاهلي غير منحول، بل إنه في بعض ما حدثني به يؤكد ما أومأت إليه آنفا.

فقد قال عن كتاب «الحياة العربية من الشعر الجاهلي»، وهو من تأليف أستاذنا الدكتور الحوفي: أن من الخطأ أن نتعرف عليها من القرآن الكريم، وهذا يعني: أن الشعر الجاهلي لا يعد مصدرًا موثوقًا به في دراسة الحياة العربية، وما ذلك إلا لأنه منحول أو مشكوك في صحة نسبته إلى شعراء العصر الجاهلي.

مع الحرية والديمقراطية:

وتجدر الإشارة إلى أن الملك فؤاد كان من وراء ثورة الأزهر ضد كتاب «في الشعر الجاهلى» ومؤلفه، فقد ذكر لى العميد أن عبد الخالق ثروت سأل الشيخ أبا الفضل الجيزاوى - وكان شيخ الأزهر - عن الحملة التى يقوم بها الأزهر ضد طه حسين، فقال الشيخ: إن الأزهر غير مسئول عن هذه الحملة، فسأله عبد الخالق: ومن المسئول إذن؟ فقال: الملك فؤاد، ويضيف العميد قائلا: إن الملك فؤاد كان يقدرنى جدا ويحبنى، ولكنه غضب على حين ناديت بالدستور، وتحدثى عن الحياة الديمقراطية، لقد ضاق بى الملك لمناداتى بالحرية والديمقراطية، ومع هذا كان يقدرنى، فقد قال «لسيلاكوه» مدير المتحف المصرى: إنى أحترم طه حسين، ولكنى لا أحبه.

وقلت للعميد: يبدو أن الملك كان يرغب فى أن تكون من أنصاره الذين يكتبون عنه ويشيدون به، وجاء رد العميد فى انفعال: لم أفعل هذا معه ولا مع غيره من الحكام.

وكان الأستاذ فريد شحاتة الذى عمل مع العميد سكرتيرا نحو أربعين عاما قد زعم بعد أن تخلى عن العمل معه أن العميد تأثر بالمستشرقين فى محتوى وعنوان بعض كتبه وعناوينها «حديث الأربعاء».

وعقب العميد على مزاعم سكرتيره فقال: فصول كتاب «حديث الأربعاء» قرأها الناس فى السياسة والجهاد، فقد كانت فى الأصل طائفة من المقالات نشرت فى هاتين المجلتين، ولأنى كنت أكتبها

للناس في يوم الأربعاء سميت بحديث الأربعاء، كما يفعل الآن الأستاذ أحمد بهاء الدين في الأهرام حين ينشر أسبوعيا مقالا يوم الأحد، ويسميه حديث الأحد، فبمن تأثر بهاء الدين من الأجانب أو حتى من العرب في حديثه، إن صح زعم فريد أني تأثرت في حديث الأربعاء ببعض الكتاب الأجانب؟!».

قصة «على هامش السيرة»:

كذلك زعم الأستاذ فريد أن العميد سرق عنوان كتابه «على هامش السيرة» من كاتب فرنسي هو «جيل لوميتر» الذى عاش تقريبا ما بين سنتي (١٨٥٣ - ١٩١٤م).

ويعقب العميد على هذا فيقول: إنني أعجبت بهذا الكاتب الفرنسي وطريقته في الكتابة، فقد ألف كتابا بعنوان: «على هامش الكتب القديمة»، وفيه كان يقلد أسلوب الكتب القديمة. مثل: الإلياذة والأوديسا، ثم يعلق بعد التقليد، فأردت أن أكتب كتابا على غرار ما فعل الكاتب الفرنسي فاخترت السيرة النبوية لتكون مادة أكتب على هامشها كتابا يعد من أحب الكتب إلى نفسي، وقد اعترض كثيرون على هذه التسمية، ولكنى أصدرت «على هامش السيرة» في ثلاثة أجزاء، وكنت أظن في أول الأمر أنها سوف تصدر في جزء واحد، وقد اعتمدت على الخيال في هذا الكتاب إلا فيما يتعلق بالرسول عليه السلام.

ولقد قلت أكثر من مرة إننى كتبت أشياء ليست هى السيرة، في صميمها، ولكن على هامشها وجيل لوميتر يقلد الكتب الأجنبية

القديمة، ولعل مصدر تأثرى به هو فى العنوان، فكتابى على هامش السيرة النبوية، وقد قلت فى مقدمته: ما قصدت إلا إحياء الأدب القديم وإحياء ذكر العرب الأولين بعد أن قرأت السيرة فامتلأت بها نفسى، وفاض بها قلبى، وانطلق بها لسانى، هى على ذلك صورة يسيرة طبيعية لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ كتب السيرة التى لا أعدل بها كتبا أخرى مهما تكن، والتى لا ينقضى حبى لها وإعجابى بها وحرصى على أن يقرأها الناس.

ويختم العميد تعقيبه بقوله: «إن ما يدعيه فريد حول كتبى شىء لا يطاق ولا يعقل».

وسئل العميد عن كتابه «الأيام» أيعد قصة أدبية أو ترجمة ذاتية؟ فأجاب: لا يعد كتاب الأيام قصة أدبية، ولكنه ترجمة ذاتية وليس أول ترجمة ذاتية فى الأدب العربى كما يذهب البعض، فهناك ابن خلدون كتب عن نفسه فى رحلته، وبهذه المناسبة أذكر أنى ألفت الجزء الأول والثانى من الأيام فى أوربا، وأنى أمليت الجزءين فى ظروف متشابهة، فالجزء الأول أمليته بعد صدور كتاب «فى الشعر الجاهلى» وما أثاره من مشكلات، وكنت فى أوربا أتابع ما يدور حول هذا الكتاب، وأشعر بضيق شديد لما يجرى من أحداث، وحاولت الهروب من هذا الضيق أو التغلب عليه بإملاء الجزء الأول من الأيام.

وأما الجزء الثانى، ففى سنة ١٩٣٨م حرض محمد محمود رئيس الأحرار الدستوريين طلبة كلية الحقوق علىّ فهجموا على مكتبى فى

كلية الآداب، وحطموا بعض أثاثه، وقد تألمت لهذا أبلغ الألم ولجأت وأنا فى أوربا إلى إملاء الجزء الثانى من الأيام علنى أنسى تلك الآلام.

نصيحة فى غير محلها:

والذى أذكره أيضا أنى أمليت الجزء الأول فى ستة أيام والثانى فى تسعة، وقد نشر الجزء الأول فى مجلة الهلال، ثم جمعته بعد ذلك فى كتاب، وكان من رأى صديقى المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى ألا أجمع ما كتبته فى الهلال؛ لأنه لا يستحق أن يكون كتابا، وقد طبع هذا الجزء من الأيام حتى الآن نحو أربعين طبعة، وترجم إلى جميع لغات العالم تقريبا، وقد ترجم أول ما ترجم إلى اللغة العبرية قبل أن يكون لليهود شأن فى فلسطين.

وكانت دار الآداب البيروتية قد نشرت للعميد كتابا بعنوان «مذكرات طه حسين» وذلك فى سنة ١٩٦٧م، وتعد هذه المذكرات الجزء الثالث من الأيام، ومن ثم لم يرض العميد عما قام به الدكتور سهيل إدريس فى هذه المذكرات من وضع العنوانات الداخلية للفصول، وقد أعيد طبع هذا الجزء فى دار المعارف على النسق الذى صدر به الجزء الأول والثانى.

على أن العميد ـ كما تحدث بهذا فى مناسبات عديدة ـ كان يطمع فى أن يمد الله فى عمره ويسبغ عليه نعمة العافية؛ ليكمل كتابيه الأيام والفتنة الكبرى، ولكن لكل أجل كتاب، وأن الأيام بأجزائه الثلاثة

لا يترجم من حياة العميد سوى طفولته وصباه وحياته فى الأزهر والجامعة المصرية القديمة، ولو قدر لهذا الكتاب أن يكون ترجمة كاملة لحياة العميد لبلغ نحو عشرة أجزاء؛ لأن حياة العميد بعد عودته من أوربا اتسمت بطابع الصراع، الصراع السياسى والصراع الفكرى، ثم هى فى الوقت ذاته مرحلة الإنتاج العلمى والأدبى، وقيادة الحياة الأدبية والفكرية فى العالم العربى، فضلا عن المناصب التى أسندت إليه كالعمادة والوزارة ورئاسة المجمع اللغوى.

وأما أحلام شهرزاد فإنها قصة رمزية تحدثت عن فساد الملكية فى مصر، وقد ظهرت هذه القصة فى أول عدد من سلسلة «اقرأ» التى تصدرها دار المعارف منذ نحو ربع قرن.

إن الملك فؤاد كان يعرف قدر العميد، غير أنه لم يكن يطمئن إليه أو يحبه بسبب ما أومأت إليه فى الحديث عن كتاب «فى الشعر الجاهلى» ولكن الملك فاروق لم يكن كأبيه يعرف منزلة العميد، ومع هذا كان يراه مناوئا للعرش، وقد حدثنى العميد عن علاقاته بفاروق فقال: «لقد نشرت فى مجلة «الهلال» مقالا تحت عنوان «القلب المقفل» أو المغلق لا أدرى، وبعد نشره جاءنى الأستاذان فكرى أباظة وإميل زيدان، وقالا لى: إن الملك يظن أن المقال يعرض به، فقلت لهما: ليس فى المقال تعريض بالملك، ولا أعنيه بما كتبت، ثم صمت العميد برهة وقال: وأقسم بالله، أن الملك كان فى ذهنى وأنا أكتب المقال».

رد على الملك:

ولما تولى العميد وزارة المعارف ووقف أمام فاروق يقسم اليمين قال له: أنا بامتحنك يا دكتور طه، ولا أريد هذا الكلام الفارغ الذى تحدث به الناس فى الجرائد، ويقول العميد: ولزمت الصمت، ولم أرد على الملك، ولكن ردى عليه كان بعد ذلك اللقاء بيوم واحد، فقد أعلنت مجانية التعليم الابتدائى والثانوى.

ولما أردت إعلان مجانية التعليم الجامعى رفض فاروق بشدة، وقال للنحاس: إن طه يريد أن يجعل البلد شيوعية.

وسئل العميد عن الشخصية التى يتحدث عنها فى كتاب «أديب» فقال: إنها شخصية الأستاذ جلال شعيب، وكان مبعوثا فى باريس، غير أنه أصيب بمرض عقلى فكان يسىء التصرف، مما حملنى على الاتصال بسعد زغلول، وكان مراقبا للجامعة الأهلية. وشرحت له حالته، ورجوته فى استدعائه، وتم نقله إلى مصر، ثم توفى بعد ذلك.

وإذا كان «أديب» قصة واقعية تناولت شخصية عرفها العميد عن كثب، فإن سائر ما كتب من قصص يقول عنه: إن كل ما كتبت من قصص حقيقية ليس فيه خيال، اللهم إلا بعض الأحداث القليلة لربط أجزاء القصة ربطا فنيا.

ويتحدث العميد عن بعض قصصه، فيقول عن «شجرة البؤس»: لقد كتبت هذه القصة فى إجازة بلبنان، كنت فى هذه الإجازة أقرأ صباحا فى صحيح البخارى، ومساء أقرأ لكارل ماركس، وبين الصباح والمساء أملى كل يوم بعض هذه القصة.

ويقول عن «الحب الضائع»: أنا لا أرضى عن هذه القصة، أو بمعنى أصح لا أميل إليها، وقد كتبتها مسلسلة فى مجلة «الراديو» قبل أن تصبح حكومية.

ورتب العميد ما كتب من قصص ترتيبا زمنيا فقال: أديب ثم شجرة البؤس، فدعاء الكروان، والحب الضائع، وأحلام شهرزاد والمعذبون فى الأرض.

ونشر العميد بعض القصص القصيرة فى الصحف والمجلات، ولكنه قال عنها ـ وكان يحدثنى عن هذا فى مستهل يونيو سنة ١٩٧٠م ـ لا أذكرها الآن.

وبعد فهذه لمحات عن بعض مؤلفات طه حسين التى قال عنها: ما قرأت كتابا ألفته ولا راجعت نصا بعد كتابته، ومع هذا كان يرغب فى مراجعة كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر»، ليغير فيه بعض الآراء؛ فقد انتشر التعليم وأصبح مجانا فى جميع مراحله، كما قويت الصلات العلمية والأدبية بين البلاد العربية.

والعميد مع هذا أيضا كان أحيانا يشير إلى أن من بين كتبه مؤلفات حبيبة إلى نفسه وهى: على هامش السيرة، والوعد الحق، والشيخان، ومرآة الإسلام، وتجديد ذكرى أبى العلاء باعتباره أول كتاب تحدث عن رهين المحبسين.

* * *

رسائل إلى طه حسين

أتيح لى لقاء العميد والعمل معه في العقد الأخير من عمره، أقصر هذا الكلمة على أهم ما تلقاه من رسائل فى هذه الفترة، بالإضافة إلى ما حدثنى به عن بعض الرسائل التى جاءته فى مناسبات مختلفة.

إن كتابة الرسائل إلى العظماء من القادة والعلماء والأدبـاء أمر مألوف، بيد أن ما يكتب إلى العلماء والأدباء يدور غالبا فى نطاق العلم والأدب سواء أكان ذلك بالسؤال عن بعض القضايا الفكرية، أم كان بالإطراء وإبداء الإعجاب لما صدر عن العالم أو الأديب من أفكار وآثار.

وطه حسين، هذا الأديب العبقرى الذى شق طريقه بين الصخور، وواجه العواصف في إباء، وما زادته الشدائد إلا استمساكا بما يؤمن به ويدعو إليه. هذا الأديب تلقى مئات الرسائل منذ أن أصبح له شأن فى عالم الفكر والأدب، وعكست هذه الرسائل إكبار الرجل، وحب الناس له، كما عكست طرفا من مواقف المناوئين والمتحاملين عليه.

ولأنه أتيح لى لقاء العميد والعمل معه فى العقد الأخير من عمره، أقصر هذا الكلمة على أهم ما تلقاه من رسائل فى هذه الفترة، بالإضافة إلى ما حدثنى به عن بعض الرسائل التى جاءته فى مناسبات مختلفة.

فى عام ١٩٢٦م صدر لطه حسين كتابه عن الشعر الجاهلى، ونجم عن صدوره ثورة بعض الفئات وبخاصة علماء الأزهر، وذلك لما اشتمل

عليه الكتاب من آراء ونظريات عدها البعض تعريضا بالقرآن الكريم، وإنكارا لبعض ما جاء فيه من قصص وأخبار.

ولست هنا فى مجال عرض قضية هذا الكتاب، ولكنى أومأت إليها لأشير إلى أن العميد تلقى ـ بعد صدور كتابه وما أثير حوله فى الصحف والبرلمان ـ عديدا من الرسائل تهدده بالقتل أو تفيض بالسباب المقذع والاتهامات الباطلة.

برقية شكر من الحكيم

طه حسين أول من عرَّف القراء بالأستاذ توفيق الحكيم، فقد نشر عن مسرحية «أهل الكهف» مقالة أشاد فيها بمؤلفها، وبطاقته الفنية المبدعة، وبعث الأستاذ الحكيم برقية شكر للعميد بعد نشر تلك المقالة، وحدثنى طه حسين قائلا:

ولكن الأستاذ الحكيم غضب منى؛ لأنى كتبت عن «شهرزاد» وقلت: إن الأستاذ توفيق فى حاجة إلى مزيد من القراءة الفلسفية، فقد أرسل إلىَّ خطابا يشتمنى فيه ويقول بأنه قرأ فى الفلسفة أكثر مما قرأت، وأنه ليس فى حاجة إلى نصائحى، ومن يومها نسى الأستاذ توفيق كل شىء، وصار لا يجامل فى أية مناسبة.

ويبدو أن الجفوة التى أحدثتها رسالة الأستاذ الحكيم بين الكاتبين الكبيرين لم تستمر طويلا، وأن العلاقة الطيبة بينهما قد تطورت وبلغت درجة الصداقة المتينة، بدليل هذا الكتاب الذى يعد نوعا من

المزاح بينهما، وهو كتاب «القصر المسحور» وبدليل قول طه حسين لى: إن الأستاذ الحكيم ليس بخيلا كما كان يحب أن يشاع عنه. وكان يستقبلنى كثيرا عند عودتى من أوربا فى الإسكندرية، ويعزمنى على الغداء وبدليل تلك الرسائل الكثيرة التى كان يرسلها العميد من أوربا إلى الأستاذ الحكيم مخاطبا إياه: صديقى العزيز أو أخى العزيز. وكلا التعبيرين يوحى بمودة عميقة خالصة يؤكدها ما كان يختم به الدكتور طه رسائله بقوله: «وتقبل منا جميعا أصدق التحية وأخلص الود».

أعمى البصر والبصيرة

وحدثنى طه حسين عن كتابه «على وبنوه» فقال: لقد أنصفت الإمام عليًّا فى هذا الكتاب، ورضيه عامة الشيعة فى العراق. ومع هذا بعث إلى بعضهم برسالة يدعو فيها بقوله: «أعمى الله بصيرتك كما أعمى بصرك».

ولما ألغت مصر القضاء الشرعى كتب طه حسين فى جريدة «الجمهورية» مقالة تحت عنوان «الخطوة الثانية» طالب فيها بالقضاء على ثنائية التعليم عن طريق تطوير الأزهر وتوحيد التعليم فى المرحلتين الإعدادية والثانوية، وأثارت هذه المقالة رجال الأزهر وبعض المسئولين. واتهم طه حسين بخدمة الفكر الاستعمارى ومعاداة الإسلام، وخصصت مجلة الأزهر بعض أعدادها للرد على تلك المقالة دون مراعاة لموضوعية النقاش والجدال بالتى هى أحسن. وحمل البريد

إلى العميد عدة رسائل بعضها يؤيده فيما نادى به، وبعضها الآخر يحمل عليه ويكرر ما كان فى قضية الشعر الجاهلى.

يا مسهل يا رب

وأرسل الدكتور محمد الطبلاوى رسالة إلى طه حسين عبر له فى مستهلها عن أصدق حبه وإعجابه وأطيب تحياته وأمنياته، ثم سأله عن معنى كلمة «رب» إذا كانت معرفة بالألف واللام أو غير معرفة بهما، وأيضا كلمة «مسهل» فى قول الناس: «يا مسهل يا رب» وهل هذه الكلمة عربية أو أنها دخلت لغتنا من العبرية أو سواها من اللغات الشرقية، وختم رسالته بإبداء رغبته فى زيارة طه حسين فى الوقت الذى يحدده له.

وطلب منى طه حسين أن أعد ردًا على هذه الرسالة، وقد حدثنى عما أكتبه جوابا لما سئل عنه، وكتبت ما يلى وقرأته عليه فأقره.

السيد المحترم الدكتور محمد جلال الطبلاوى، أحييكم أجمل تحية، وأشكركم أعمق الشكر على رسالتكم الكريمة. وبعد فإن كلمة «رب» تطلق فى اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربى، والله تعالى سيد المخلوقات ومدبر أمرها، ولهذا يقال: رب العالمين ورب السموات والأرض، ويقال فى غير الله: رب الدار، وهن ربات الجمال.

وكلمة رب إذا عرفت بالألف واللام لا تقال إلا لله، وإن كانت قد جاءت لغير الله فى بعض الأشعار المنسوبة إلى العصر الجاهلى.

قال الحارث بن حلزة:

وهو الرب والشهيد على يو م الحيـــارين والبلاء بلاء

على أن كلمة «رب» لم ترد معرفة بالألف واللام فى القرآن الكريم وجمع كلمة رب أرباب وكان من حقه ألا يجمع إذا كان إطلاقه على الله تعالى وحده، ولكن أتى بلفظ الجمع فى قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ على حسب اعتقادات المشركين لا على ما عليه ذات الشىء فى نفسه.

وأما كلمة «مسهل» فهى وصف من أوصاف الناس لله؛ لأنه رءوف بعباده يفرج كروبهم وييسر أمورهم، وليست الكلمة من الإسرائيليات التى دخلت إلى لغتنا كما أشرت:

ونظرا لسفرى على أوربا بعد أيام قليلة يسعدنى مقابلتكم بعد عودتى من السفر إن شاء الله.

ولكم أصدق تحياتى وتمنياتى الطيبة،،

يوم من عمر طه حسين

وفى العام الدراسى ١٩٦٩م - ١٩٧٠م قررت وزارة التربية فى مصر الجزء الأول من «الأيام» على طلبة الشهادة الإعدادية، وطه حسين فى هذا الكتاب يشير فى أول جملة منه إلى يوم من أيام حياته، وقد اختلف المدرسون فى تفسير هذا اليوم، فمنهم من ذهب إلى أن المقصود به يوم

مولد العميد، ومنهم من رأى أنه اليوم الذى بدأ فيه العميد يخطو إلى الشارع، ومن ثم تلقى عشرات الرسائل من هؤلاء الطلاب، وكلها تطلب شرح هذا اليوم وبيان المقصود به.

ولكثرة الرسائل أملى على العميد الكلمة التالية بعنوان «إجابة» وطلب منى أن أحملها إلى المسئولين فى الأهرام لنشرها.

«تلقيت رسائل عديدة من بعض شبابنا الذين يدرسون فى المدارس الإعدادية يسألوننى فيها عن أول جملة من كتاب الأيام. ذكرت فيها يوما لا أعرف اسمه، ووقتا من هذا اليوم لم أحدده، وإنما ترددت فى أمره أكان وقت الفجر أم وقت العشاء، وكثير من هؤلاء الشبان يقولون: إن أساتذتهم لم يفسروا لهم هذا اليوم، فى السطور الأولى من هذا الكتاب، وهو أول يوم خرجت فيه من الدار.

ولم يكن هؤلاء الشبان فى حاجة إلى أن يفسر لهم هذا اليوم؛ لأنه مذكور واضح كل الوضوح، والغريب أن بعض أساتذتهم قد أغروهم بسؤالى مع أنهم يستطيعون أن يبينوا هذا اليوم إلا أن يمنعهم من ذلك كسل أو تقصير أو قصور. فليقرأ التلاميذ هذه الصفحة من هذا الكتاب، فسيجدون فيها جواب سؤالهم واضحا جليا، والله المستعان على استقامة التعليم فى مدارسنا على اختلافها».

وكنت قد قرأت للعميد الصفحة الأولى من ذلك الكتاب قبل إملاء هذه الكلمة التى نشرت فى الأهرام يوم العاشر من ديسمبر سنة ١٩٦٩م.

رسالة من تلميذة

وكان من بين الرسائل التى تلقاها طه حسين حول «الأيام» رسالة من تلميذة فى الصف الثالث الإعدادى، ولم تكن تسأل عما سأل عنه زملاؤها، وإنما أثنت على طه حسين وكتاب الأيام ثناءً مستطابا فى لغة عربية فصيحة وأسلوب أدبى ممتاز، وأشارت إلى أنها بعد أن قرأت هذا الكتاب، وأعجبت به كل الإعجاب، أقبلت تلتهم كتب طه حسين الأديب الإنسان.

وسُرَّ العميد من هذه الرسالة كل السرور، وأملى على ما يلى جوابًا على تلك التلميذة التى تنبأ لها بمستقبل مشرق فى الأدب والكتابة.

الآنسة الكريمة زينب أحمد عمر..

أهدى إليك أصدق تحياتى وأعمق شكرى على كتابك الرائع الذى تلقيته وقرأته مرات وسررت به سرورا لا حد له، ومهما شكرتك وأثنيت عليك فلن أؤدى حقك بعد هذا الكتاب الكريم.

وأثنيت على كتابى الأيام ثناءً تجاوزت فيه حد الاعتدال. وأحب أن أؤكد لك أنى لم أرض قط عن كتاب من كتبى مهما كان موضوعه، كما أنى لم أرض قط عن نفسى وأحمد الله الذى جنبنى هذا الرضا، وعصمنى من هذا الغرور، وقد أعجبتنى طريقتك فى الكتابة وأعجبنى تعبيرك عما تريدين، ولست أشك فى أنه سيكون لك مستقبل رائع فى الأدب والكتابة، ومن يدرى لعلك تقولين الشعر أيضا، فاقرئى فى الأدب

العربى وفى الآداب الأجنبية ما استطعت أن تقرئى، فهذه هى الوسيلة إلى بلوغك ما ينبغى أن تبلغيه من مكانة رفيعة فى الأدب إن شاء الله.

وأجدد تحيتى وشكرى وأسأل الله لك النجاح والتوفيق».

وكنت شديد الحرص على نسخ رسالة تلك التلميذة، غير أن زوجة العميد أخذتها فور الانتهاء من قراءتها لتحتفظ بها مع ما تحتفظ به مما ينشر عن العميد أو يرسل إليه.

أما الرد فقد نسخته لأنى كلفت بإرساله، فلم أضعه فى صندوق البريد إلا بعد نقله.

وسألت العميد: ألم تقرأ كتابا من كتبك بعد تأليفه، قال: لا، لم يحدث قط أن قرأت مؤلفا لى بعد كتابته، قلت: جرت العادة أن كل مؤلف يقرأ كتبه وبخاصة إذا أعيد طبعها ليعدل أو يحذف أو يزيد، قال: إنى أريد أن أقرأ كتاب مستقبل الثقافة فى مصر، لأعدل فيه بعض الأشياء بعد أن أصبح التعليم مجانا فى جميع مراحله، وقويت الصلات العلمية والأدبية بين البلاد العربية على الرغم من الخلافات بين بعض حكامها.

سؤال..

وكتبت مجلة اللسان العربى إلى العميد بمناسبة مرور تسعة أعوام على صدورها، وقد ذكرت فى رسالتها أنها تعزم على تعريف قرائها بالكُتَّاب الذين يسهمون فى تحريرها مع عرض صورة صحيحة من أصدقائها جنود اللغة والفكر المخلصين.

وحددت المجلة بعض النقاط التى ترجو أن يكتب العميد عنها فى إيجاز، وهذه النقاط هى:

١ - تاريخ الميلاد ومكانه والمنشأ.
٢ - الدراسة والتعلم والشهادات الثقافية والتخصص.
٣ - اللغات التى تجيدونها.
٤ - هواياتكم الأدبية والعلمية والفنية.
٥ - مدى تأثركم بمن سبقكم ومدى تأثيركم فى سواكم.
٦ - مؤلفاتكم بأسمائها وموضوعاتها.

وجواب..

وجاء رد العميد على هذه النقاط كما يلى..

١ - ولدت فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٩م بعزبة الكيلو، ونشأت بمدينة مغاغة بمحافظة المنيا.
٢ - درست فى الأزهر والجامعة الأهلية المصرية وجامعة السوربون، وحصلت على درجتى دكتوراه علمية، واحدة من مصر، والأخرى من فرنسا كما حصلت على ثمانى دكتوراه فخرية، على النحو التالى:
- من فرنسا.. واحدة من جامعة مونبليه، وأخرى من ليون.
- من إنجلترا.. واحدة من جامعة أكسفورد.
- من إيطاليا.. واحدة من جامعة روما، وأخرى من بالرم.
- من اليونان.. واحدة من جامعة أثينا.
- من إسبانيا.. واحدة من جامعة مدريد، وأخرى من غرناطة.

٣ - أجيد الفرنسية واللاتينية واليونانية.
٤ - أهوى الأدب العربى القديم، وأحب الغناء الجيد الخالص، وبخاصة الغناء الأوربى.
٥ - تأثرت بالجاحظ والمبرد وأبى العلاء، وأما مدى تأثيرى فى سواى فلا علم لى به، وهو أمر متروك للباحثين والدارسين.
٦ - وأما مؤلفاتى وموضوعاتها فيمكن الرجوع إلى دار المعارف للحصول منها على هذه المؤلفات ومعرفة موضوعاتها من خلال الاطلاع عليها.

يطلب إنقاذه من دفع الإيجار

ومن الرسائل التى تلقاها طه حسين رسالة من عامل بمدينة المنصورة يطلب من العميد أن يساعده على الحج إلى البيت الحرام، أو على بناء بيت صغير ينقذه من مأساة أول كل شهر وهى الإيجار، ويفضل العامل الأمر الثانى لحاجته الملحة إلى مسكن خاص.

وضحك العميد ضحكة عالية بعد أن قرأت عليه رسالة هذا العامل، ثم قال: إن الناس يظنون أننى رجل ثرى، والحقيقة غير ذلك، إننى رجل مستورر الحال والحمد لله، لا أمتلك أموالا ثابتة أو منقولة، سوى هذا البيت الذى أقيم فيه، ورحم الله والدى فقد قال لى ولأخوتى قبيل وفاته: إنى لم أترك لكم ميراثا، ولكننى علمتكم جميعا.

إن دخل طه حسين كان يتمثل فى معاشه ومكافأة العضوية فى بعض الهيئات العلمية. وما يحصل عليه من كتبه، وكان هذا يبلغ نحو ثلاثة آلاف جنيه كل عام، وكان يخصص هذا المبلغ لرحلة الصيف.

وكان العميد مع هذا كريما معطاء يجود بما يستطيع على ذوى الحاجة والفاقة وبخاصة أهله ورحمه، وكان يعهد إلى أحيانا بإرسال ما يجود به عن طريق البريد.

وكان الناس يعرفون فى العميد كرمه وإنسانيته، فكانوا يطرقون بيته في الصباح أو المساء، وما كان يرد إنسانا دون أن يقدم إليه شيئا، وكان هذا يثير زوجه فى كثير من الأحيان، ويجعلها تتهم زوجها بأنه يستجيب لكل طارق، ويثق سريعًا بالناس، ولهذا كان العميد يخفى عن زوجه ما ينفقه ويجود به.

صورة.. ودعوات:

وفى يوم الإثنين الموافق للخامس عشر من فبراير سنة ١٩٧١م عقد المجمع اللغوى جلسة افتتاح مؤتمره السنوى فى مبنى الجامعة العربية، ورأس العميد هذه الجلسة، ولكنه لم يستطع أن يسير على قدميه من أمام الباب الخارجى إلى قاعة الاجتماعات، فحمل على كرسى، وفى اليوم التالى نشرت الأهرام صورة العميد وهو محمول على الكرسى، وكان نشر هذه الصورة سببا فى تلقى العميد عدة رسائل ترجو له الصحة وطول البقاء..

وكان العميد فى العقد الأخير من عمره يعانى من ضعف فى ساقيه وبطء فى حركته، وكان لا يستطيع السير إلا متوكئا على عصاه وذراع شخص آخر، وأورثه هذا ضعفا فى معدته، وغازات مؤلمة فى أمعائه،

وكان يحاول التغلب على هذه الآلام أو التخفيف من وطأتها بالإقلال من الطعام، وكانت زوجه تخاصمه لعدم إقباله عليه كما تريد، وزاد هذا من ضعف العميد، وكان فى أعوامه الأخيرة لا يقوى على صعود سلم بيته أو المجمع، فكان يحمل عند الصعود والهبوط، وكان إذا انتقل من كرسيه إلى فراشه، لا يقدر على رفع ساقيه إلى سريره، فكان من يصحبه إليه يعاونه فى هذا..

* * *

هذا طرف من الرسائل التى كان العميد يتلقاها، وهناك رسائل كثيرة لا سبيل إلى الحديث عنها، فهى تحيات فى مناسبات، أو رجاء فى شفاعة، أو طلب لصورة أو كتاب، أو تعبير عن مشاعر الحب والإعجاب أو رغبة فى معرفة رأى العميد فى عمل أدبى جديد... إلخ.

وكان العميد يقرأ كل ما يرسل إليه بعناية، ويحرص على أن يكتب ردا على كل رسالة، ولكنه فى سنواته الأخيرة، حيث أصبح ينسى بصورة غريبة، كان لا يرد على رسالة إلا إذا اقتضت الضرورة، وذُكِّر بهذا الرد غير مرة.

والجدير بالإشارة إليه أن هذه الرسائل كانت ترد إلى العميد من جميع البلاد العربية، وكان يكتب إليه بعض الحكام والوزراء العرب، وبعض هؤلاء كان تلميذا للعميد درس عليه أو قرأ له.

وكذلك كانت ترد إلى العميد رسائل من بعض البلاد الأجنبية، وما كان يقرأ هذه الرسائل إلا زوجه، كما كانت تقوم بالرد عليها..

في ذكرى ميلاده:

وقد وقفت على عدة رسائل وردت إلى العميد من بعض رجال السياسة أو الأدباء والمفكرين، منها ما يلي:

كتب الزعيم مصطفى النحاس إلى طه حسين رسالة في مناسبة ذكرى مولده يقول له: بارك الله في قلمك، وصان أدبك، وأعز بك لغة العرب.

وكان العميد قد تعرض لأزمة مالية شديدة؛ لأن صدقي باشا أحاله على المعاش دون أن يكون له معاش، وذلك بسبب عدم استجابته لرغبة الحكومة في منح بعض الساسة درجة الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب.

ولما عرف الزعيم مصطفى النحاس هذا ذهب إلى العميد ومعه مكرم عبيد وعرضا عليه رئاسة تحرير كوكب الشرق، وهي جريدة وفدية، وكان راتب العميد منها مائة جنيه، وقد حدثني عن بدء عمله بهذه الجريدة، ومتى تركها فقال: «وابتدأ عملي في كوكب الشرق من شهر مارس ١٩٣٢ إلى شهر سبتمبر ١٩٣٤م، وقد تركت هذه الجريدة؛ لأني عدت إلى عملي في الجامعة»، فالعميد وفقا لما حدثني به ظل يعمل في جريدة كوكب الشرق عامين ونصف عام، وأنه ترك العمل؛ لأنه عاد إلى الجامعة، ولكن رسالة من صاحب هذه الجريدة، وهو الأستاذ أحمد حافظ عوض ـ وهو من كبار الصحفيين والكتاب في مصر وكان عضوا بمجمع اللغة العربية، واستمرت كوكب الشرق في الصدور زهاء عشرين عاما وتوفي سنة ١٩٥٠م ـ أرسلها إلى العميد بتاريخ ٢ مايو ١٩٣٤م جاء فيها:

«عزيزى الدكتور طه حسين.

لقد أحزننى وآلمنى كثيرًا بعد الذى قلته لكم فى التليفون عن استعدادى للقيام بكل ما يؤدى إلى رضاكم ويكفل راحتكم؛ لأنكم تركتم إدارة الكواكب وانقطعتم عن العمل بغير ما سبب يدعو لذلك، ولما كانت هذه رغبتكم فلا اعتراض لى عليها، وأنا أشد الناس أسفًا على حصولها، وتأكيدًا لما قلته لكم فى التليفون عقب الحكم، أرسل لكم مع حضرة فريد أفندى مبلغ الغرامة خمسين جنيهًا، ومعه أيضًا ثمانون جنيهًا عن المدة من أول إبريل لغاية ٢٤ منه، كما طلبتم فى خطابكم. ولإنى لأرجو من صميم فؤادى أن تدوم مودتكم ويبقى عطفكم على الصديق المخلص العارف بفضلكم المقدر كل التقدير لمجهوداتكم».

ويتضح من هذه الرسالة أن العميد عمل بكوكب الشرق عامين فقط، وأن سبب ترك العمل بها لا يرجع إلى العودة إلى الجامعة، وإنما يرجع كما تومئ الرسالة إلى اختلافات فى الرأى بين العميد وصاحب الجريدة حول أمور لم تفصح عنها هذه الرسالة، وإن تضمنت الإشارة إلى أن الأستاذ أحمد حافظ أبدى للعميد استعداده لكل ما يرضيه ويكفل راحته، بيد أنه أصر على موقفه وترك العمل بكوكب الشرق.

كذلك تضمنت الرسالة الإشارة إلى حكم ضد العميد بغرامة قدرها خمسون جنيها، ولكنها لم تفصح عن أسباب هذا الحكم، ولعلها كانت مقالة من مقالات العميد السياسية التى اتسمت باللهجة الشديدة والسخرية البالغة، والنقد اللاذع.

على أن عمل الدكتور طه بكوكب الشرق كان بداية العلاقة بحزب الوفد، وقد نمت هذه العلاقة وتوطدت بين العميد ورئيس هذا الحزب حتى عين وزيرا للمعارف فى آخر وزارة رأسها مصطفى النحاس.

ومن شواهد هذه العلاقة الحميمة بين العميد والنحاس أن كل كتاب يصدر للعميد كان يقدمه هدية للنحاس، وكان هذا يشكر العميد على هديته فى رسالة يبعث بها إليه، ومن هذه الرسائل رسالة مؤخرة فى الثانى من فبراير ١٩٤٤م، وكان النحاس وقتها رئيسا لمجلس الوزراء، وقد جاء فيها:

عزيزى حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك..

تحية مباركة طيبة..

وبعد: فلقد تلقيت هديتكم الكريمة (على هامش السيرة) بما هى أهل له من التقدير وحسن القبول، وشكرت لكم كلمة الإهداء الرقيقة التى وجهتموها إلىّ، والحق أن القارئ ليجد فى كتابك من إمتاع الخيال والعاطفة ما لا يجده فى غيره، فيمضى فى قراءته إلى نهايته مأخوذا بما فيه، لا يملك عنه انصرافا ولا يجد عنه حولا.

ثم تومئ الرسالة إلى طرف مما جاء فى هذا الكتاب من تصوير فنى أخاذ ينشط معه الخيال نشاطًا يذهب بفوارق الزمان وحدود المكان، وتختم الرسالة بأن العميد أحدث بكتابه «على هامش السيرة» فى الأدب العربى ألوانًا من الفن القوى تجدد الإيمان بأن لغة القرآن

لا تزال مستعدة للصور الأدبية الرائعة، وأن فى تاريخها مادة غزيرة تنسج منها أحسن القصص وأمتعها.

وكانت آخر كلمات هذه الرسالة: فبارك الله قلمك، وصان أدبك، وأعز بك لغة العرب، ونفع بمؤلفك طلابك ومريديك ومحبيك، والسلام عليكم ورحمة الله.

المخلص
مصطفى النحاس

ورسالة الرئيس الجليل كما كان يطلق عليه فى صحف الوفد قطعة أدبية تشهد لكاتبها بأنه أديب مرموق، مما يثير الشك فيمن سطره، ومع هذا تؤكد بأن مودة عميقة كانت بين العميد ومصطفى النحاس، وأن هذا كان يقدر العميد كل التقدير.

وفى شهر فبراير ١٩٤٣م نشرت جريدة المقطم حديثا للعميد أجراه معه الأستاذ كريم ثابت، وكان مما ورد فى هذا الحديث الدعوة إلى إنشاء كرسى للدراسات السودانية، بجامعة فؤاد الأول، وقد كتب الأمير عمر طوسون للعميد رسالة عبر له فيها عن سروره بهذه الدعوة، وأثنى على جهوده الطيبة فى سبيل توطيد أواصر الإخاء بين مصر والسودان، وقد جاء فى هذه الرسالة: ونحن لا يسعنا إزاء ما تقدمونه من كبير الفضل لأبناء النيل جميعا إلا أن نشكركم أجزل الشكر ونثنى أطيب الثناء على جهودكم العظيمة التى تبذلونها فى هذا السبيل من أجل سعادة

هؤلاء الأبناء، وتقوية أخوتهم، وتوثيق وحدتهم، فليس أنتج للقطرين معا، وأعود عليهما بالنفع العميم والخير العظيم من أن تكون الروابط الثقافية بينهما معززة محكمة.

واقبلوا مزيد سلامنا مع وافر احترامنا وأطيب تمنياتنا.

وهذه الرسالة إذا كانت تدل على مكانة العميد، وأن آراءه كانت موضع التقدير والاهتمام من رجالات الدولة، فإنها تدل على أن الشعور العام من المفكرين والمسئولين نحو السودان هو شعور الأخوة والمودة، وأن محاولات كثيرة بذلت فى سبيل وحدة القطرين الشقيقين، وأن القوى الدخيلة هى التى كانت تخطط فى خبث للتفريق بين مصر والسودان، بل ولتمزيق الوحدة الوطنية بين أبناء القطر الواحد، وتعد مأساة الجنوب فى السودان أوضح برهان على تلك السياسة التى توخت خلق المشكلات التى تحول دون الانطلاق نحو النمو والتقدم.

وحدثنى العميد بأنه كان يهش لصوت أم كلثوم، وأنه كانت هناك لقاءات تضم العميد وبعض المفكرين والأدباء فى صالون خاص، وتغنى فيه أم كلثوم غناء غير مصحوب بآلات موسيقية، وأن هذا الضرب من الغناء كان أجمل من الغناء المصحوب بهذه الآلات، قال العميد: إن كوكب الشرق كانت إذا صافحته أصرت على أن تقبل يده، وكان العميد يقدر سيدة الغناء العربى فى القرن العشرين ويهدى إليها كتبه، وكانت تكتب له شاكرة عطفه وكرمه، ومن الرسائل التى تلقاها العميد من السيدة أم كلثوم بعد أن أهدى إليها «القصر المسحور» – وهو كتاب

اشترك مع العميد فى تأليفه الأستاذ توفيق الحكيم، وهو يعد لونا من المزاح والدعابة بينهما - رسالة قصيرة جاء فيها:

سيدى الأستاذ الجليل طه بك حسين حظيت بمؤلفكم (القصر المسحور) الذى تفضلتم بإهدائه إلىَّ، فأكبرت منكم ذلك العطف الكريم، ولا شك عندى فى أننى سأجد بين طياته غذاء يضاعف شكرى، ويحفظ لكم فى نفسى أجمل الذكريات أدامكم الله منارًا للعلم والأدب.

أم كلثوم إبراهيم.

أما الآنسة مى الأديبة النابغة - التى انتهت حياتها بمأساة سجلها فى كتاب الأستاذ الشاعر المحقق محمد عبد الغنى حسن - فقد كانت تسعى إلى لقاء العميد مرارا، ولكنها ما كانت تذهب إليه إلا إذا اتصلت هاتفيا وحددت موعدا، وهكذا كان العميد فى العقد الأخير من عمره لا يتيح لأحد زيارته أو لقاءه إلا فى المساء وبتحديد موعد، اللهم إلا بعض الذين كانت بينهم وبين العميد مودة متميزة مثل الدكتور محمد كامل حسين، فكان يزور العميد فى أى وقت، وأذكر أن الدكتورة عائشة عبد الرحمن جاءت فى نحو الساعة الثانية عشرة ظهرا لزيارة أستاذها فى العشرين من نوفمبر ١٩٧٠م، دون موعد سابق، ورفض العميد لقاءها، وطلب منى أن أخبرها بأن تتصل هاتفيا لتحديد موعد، وعليها أن تحضر فى المساء إذا أرادت الزيارة واعتذرت للدكتورة عائشة بأن العميد لا يستطيع لقاءها لظروف صحية ـ ولم يكن هذا صحيحا -

وكأنها أدركت الحقيقة فقالت: إننى لا أستطيع فى المساء لبعد السكن، ولأنى لا أقود السيارة ليلا.

حاولت يوما الآنسة مى الاتصال هاتفيا بالعميد لتحديد موعد لزيارته، بيد أن التليفون كان مشغولا، فما كان منها إلا أن كتبت إليه الرسالة التالية:

ناديت بالتليفون ثلاث مرات لأطلب موعدا للزيارة؛ لعلمى أن الدار مزدحمة دائما بالزائرين، وأنا أبتعد عن الازدحام، ولكن التليفون طبعا مشغول؛ لأن تليفون العميد عميد التليفونات.

كم أنا سعيدة بزيارة وبدون زيارة أرجو أن يعود لطفى بك إلى الجامعة ليستقر الحق فى نصابه على نحو تعبير كاهن أوزيريس.

مع التهنئة بعيد الفطر المبارك.

مى

وأهم ما جاء فى هذه الرسالة الإشارة إلى ما ترجوه الآنسة مى من عودة لطفى بك إلى الجامعة، والمعروف أن أستاذ الجيل كان أول مدير للجامعة بعد أن أصبحت حكومية، وظل مديرا لها حتى ٢٥ يونيو ١٩٢٨م، فقد عين وزيرا للمعارف فى وزارة صديقه محمد محمود، وقد ترك هذه الوزارة فى الثانى عشر من أكتوبر ١٩٢٩م، وعاد مديرا للجامعة، ولما نقل العميد إلى وزارة المعارف؛ لأنه لم يرضخ لما طلبته حكومة صدقى منه قدم لطفى استقالته من إدارة الجامعة احتجاجا على

تصرف الحكومة، ولكنه عاد إلى الجامعة ١٩٣٥م حين تولى نجيب الهلالى وزارة المعارف. وفى سنة ١٩٣٧م يستقيل احتجاجا على اقتحام البوليس للحرم الجامعى، ولم تلب الوزارة طلبه فى تعيين حرس خاص للجامعة، ثم عاد مديرا لها وظل فى منصبه حتى عام ١٩٤١م؛ ليقدم استقالته، ويعين عضوا بمجلس الشيوخ، فلطفى السيد قد ترك إدارة الجامعة أربع مرات والراجح أن الآنسة مى تشير إلى المرة الثانية.

وكان الدكتور عبد الرزاق السنهورى قد أعير للعمل بالعراق فى العشرينات، ومن بغداد كتب للعميد رسالة مؤرخة فى السادس من فبراير سنة ١٩٢٦م استهلها بقوله:

صديقى العزيز..

تحية وسلاما وبعد: فقد انتظرت ردكم على كتابى دون جدوى، فلم يبق إلا أن أرسل لكم كتابا ثانيا، أرجو أن يكون أسعد حظا.

قرأنا جميعا فى بغداد فى الجرائد المصرية والعراقية تطورات الحالة السياسية فى مصر، وقد مرت علينا أيام كنا فيها قلقين، ثم انقشعت الغمامة بعض الشيء، ونرجو من الله أن تنقشع تماما، ويصفو الجو وتتحقق الأمانى الوطنية قريبا، كان للجهود التى بذلناها جميعا أثر طيب فى نفوس رجال الحكومة العراقية، فخاطبونى فى وضع مشروع قانون لجامعة عراقية تضم كليتى الحقوق والطب، وقد تضم أيضا كليتى آداب وعلوم، ولا نزال نتدبر الأمر، فإذا بدا لنا

إمكانه أرسلت إليك مستشيرا فيمن نستعين به من الأساتذة المصريين في ذلك العمل.

وقد عهدت إلى الحكومة العراقية أمر النظر فى القانون المدنى، ووضع مشروع لهذا القانون، وهو عمل كبير التبعة أرجو أن أوفق فيه.

ثم تحدثت الرسالة عن وفد طلابى من كلية الحقوق على رأسهم أستاذ عراقى سيزور مصر فى عطلة الربيع، وذاك توثيقا للصلات بين مصر والعراق، ويطلب الدكتور السنهورى من العميد أن يعمل على حسن استقبال هذا الوفد الذى يتلهف شوقا إلى رؤية العميد وسماع حديثه.

وذكرت الرسالة بعد هذا أن من المرجح أن يتلو وفد الطلبة، وفد من كبار النواب والأعيان، ثم وفد من المدرسين العراقيين، وإنى واثق من حسن استقبال هذه الوفود جميعا، حتى يرجعوا إلى العراق حاملين أجمل الذكريات من مصر.

وكانت آخر كلمات هذه الرسالة: وختاما أبلغكم سلام الأستاذ الزيات والأستاذ عزام، وأرجو تبليغ سلامى إلى مدام طه وللأنجال ولفريد وأحمد أمين وعوض والعبادى وجميع الأصدقاء، واقبل تحيات المخلص عبد الرزاق السنهورى.

وهذه الرسالة تتحدث دون قصد عن دور مصر الثقافى فى العالم العربى، وحرص المفكرين من أبنائها على أن تظل مصر فى عيون العرب بلد الكرم والعطاء ورائدة التعاون والتكامل بين جميع الأشقاء.

إن ما أشار إليه الدكتور السنهورى حول استشارة العميد فيمن يستعان بهم من الأساتذة المصريين للجامعة العراقية الوليدة يعبر عن حقيقة لا مراء فيها، وهى أن كل الجامعات العربية قامت فى أول نشأتها على جهد الأساتذة المصريين، وهذا واجب مصر نحو أشقائها لا تمن به على أحد.

وقد لا يعرف البعض أنه كانت بين العميد والشاعر الناقد الكاتب الإسلامى الشهير الأستاذ سيد قطب علاقة متينة، رغم أنه نقد العميد فى مستقبل الثقافة نقدا قاسيا.

وتعبر عن هذه العلاقة رسالة بعث بها الأستاذ سيد قطب إلى العميد فى الثلاثين من أغسطس سنة ١٩٤٥م جاء فيها.

سيدى الدكتور

تحياتى الخالصة..

وبعد: فقد ظللت أنتظر أن يعفينى المرض من قيوده فأستطيع أن أستمتع باللحظات الثمينة التى أستمتع بها بين الحين والحين، ولكن المرض لم يعفنى، وما زلت مضطرا للقعود.

أرسلت فى البريد المسجل كتاب الأستاذ عماد الدين عبد الحميد الذى استأذنتكم فى إرساله رجاء التفضل بقراءته، فإذا رأيتم بعدها أنه يستحق كلمة منكم أو يستأهل أن تنشره شركة الكاتب المصرى فالرأى لكم على كل حال.

وأرجو أن تتفضلوا بقبول عظيم الإجلال.

المخلص

سيد قطب

٢٤ شارع رياض بحلوان

وهذه الرسالة تبين أن قطب كان يزور العميد بين الحين والحين، وأنه كانت تجرى بينهما أحاديث أدبية ممتعة، وأن العميد كان يحقق رغبة الأستاذ سيد في أن يأخذ بيد كاتب ناشئ فيقرأ انتاجه الأدبى، ويعمل على نشره إن كان جديرًا بالنشر، مما يدل على تقدير العميد لسيد قطب.

وبعد: فهذه بعض الرسائل التي أرسلت إلى العميد في عدة مناسبات، وهي في مجموعها تشهد له بأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة في عالم الثقافة والأدب، وأن قادة الفكر وزعماء الأمة كانوا يقدرونه كل التقدير، فضلاً عن أنها تشير إلى طرف من حياة العميد وبعض آرائه، وتتحدث في لمحات عن دور مصر القيادى بالنسبة للعالم العربي، وبخاصة في المجال الثقافي، وتؤكد أن العميد عاش حياة حافلة بالنشاط الفكرى.

وأخيرا فقد كان بعض تلامذة العميد وأصدقائه وزملائه لا يكتبون إليه، ولا يذكرونه في مناسبات التحية والتهنئة، وكان هذا يؤلمه أبلغ الألم، فقد أحسن إلى الجميع ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فلما امتد به

العمر، نسيه من كان يذكره ويسعى إليه بالأمس، وهذا نكران للجميل، وهو شيء فظيع على حد قول العميد رحمه الله.

* * *

صفحات مجهولة بين العقاد وطه حسين

اتهم الدكتور طه حسين بأنه هاجم العقاد، وحمل عليه بعد وفاته، وبخاصة بعد الندوة التليفزيونية التى عقدت فى رامتان، وحضرها عدد من الأدباء منهم: أنيس منصور وثروت أباظة ونجيب محفوظ وغيرهم، ومما قاله العميد فى هذه الندوة: إنه لم يفهم عبقرية عمر للعقاد، وكان هذا القول مثار تعليق واتهام للعميد بأنه انتقد العقاد وهاجمه بعد وفاته، وقد رد العميد على هذا بقوله: قد يظن بعض الناس أنه كانت بينى وبين العقاد قطيعة، وهذا غير صحيح، فلا أعرف أن خلافا كان بينى وبين العقاد، وإنما كان العقاد لى صديقا حميما، وأخا كريما.

وكانت الإذاعة المرئية السعودية قد سجلت حديثا للعميد فى سنة ١٩٧١م، ودار هذا الحديث حول إسلاميات العميد وعلاقته بالعقاد وغيره من الأدباء والكتاب، وقد أكد العميد علاقته الأخوية بالعقاد، وأشار إلى أن ما قاله بالنسبة للعبقريات لا يعنى الخصومة والشقاق، وإنما يعنى وجهة نظر قد تكون صحيحة أو غير صحيحة، ثم قال العميد للمذيع: اقرأ إن شئت رثائى للعقاد، فهو برهان يدحض كل زعم بأنه كانت بينى وبين العقاد خصومة.

ومن أوضح الدلائل على علاقة الصداقة الحميمة والأخوة الكريمة بين العقاد والعميد تلك الرسائل التى كان يبعث بها العقاد للعميد، وقد أمدنى الأستاذ مصطفى نبيل ببعض هذه الرسائل.

كان العميد بعد عودته من البعثة قد آثر العمل مع الأحرار الدستوريين، ولما أنشئت جريدة «السياسة» اليومية، ورأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل أخذ العميد ينشر على صفحاتها مقالاته السياسية دون توقيع، ولكن أسلوبها كان ينم عن كاتبها، كما كان ينشر فى هذه الجريدة أيضا المقالات الأدبية والنقدية.

وفى ٢١ يناير سنة ١٩٢٥م، كتب الأستاذ عباس العقاد للعميد رسالة بدأها بقوله:

«أشكر لك ثناءك واهتمامك وأبادلك التحية مدحا وقدحا بالصاع صاعين وبالباع باعين، وأعجب بشجاعتك فى تقريظ كتابى ونقده فى صحيفة «السياسة» وإن كنت أسأل نفسى: هل هى شجاعة حقا؟ فإن الشجاعة هى معالجة المكروه، والإقدام على المحذور، ولا أظنك إلا ملتذًا بما فى شجاعتك الأدبية من إيذاء عقائد الناس وإحراج صدورهم، ولو كانوا من أنصارك، فهى شجاعة حبيبة إلى نفسك، تقدم بها على ما تهوى لا على ما تكره، وتجنح بك إلى ما ينيلك لذة وسرورا.. لا إلى ما يكلفك جهدا وصبرا، وكأنك تحتاج أحيانا إلى شجاعة للكف عن هذه الشجاعة، ولا أزيد على ذلك فنخوض فى غموض الفلسفة التى قلت إنك لا تسيغها، وربما كان ذلك؛ لأنك تقرأها قراءة متفرج لا قراءة من يهتم بموضوعاتها، ويشغل خاطره بالبحث عن أسرارها..».

وبعد هذه المقدمة التى انتقد فيها العقاد منهج العميد فى النقد، وأخذ عليه أنه فى شجاعته الأدبية يتجاوز حدود الموضوعية، وأن ضيق العميد بالفلسفة يرجع إلى أسلوب قراءته لها انتقل العقاد إلى الحديث عن رسالة الغفران، وكان الخيال فيها أول ما تحدث عنه، وقد ذكر أنه يوافق العميد على تعريفه للخيال، وأنه «ملكة تستمد الصور والنتائج من الأشياء الموجودة، وتؤلف بينها تأليفا غريبا يبهر النفس ويفتنها»، وطوعا لهذا التعريف ينفى العقاد أن يكون للمعرى فى رسالة الغفران حظ من الخيال، وكل ما له فى هذه الرسالة حظ الراوية الذى يسرد الأخبار المسموعة، والقاص الذى يعيد النوادر المحفوظة.

القيمة الفنية:

وإذا كان الخيال فى رسالة الغفران ضعيفا فما الذى يلذنا منها؟ يرى العقاد أن ما يلذنا من هذه القصة هو معدنها لا صورها، ويوضح رأيه قائلا: إن قطعة الذهب مثلا لها قيمتها التجارية، ولكن قطعة الذهب المصوغة فى شكل تمثال جميل أنيق لها هذه القيمة التجارية وقيمة أخرى هى القيمة الفنية الجمالية، ثم يقول: فهذه القيمة الفنية قليلة رخيصة فى رسالة الغفران لا تضيف شيئا كثيرا إلى ما فيها من متعة القصص والفكاهة والصور التى تبادر إلى الذهن عفوا عند ذكر الجنة والنار وما فيها من أسباب النعيم والعذاب، ويضيف العقاد: فإذا كان فى الرسالة متعة فوق متعة القصص والفكاهة المنقولة فالفضل فيها

السخى الذى تفيض به الرسالة لا للخيال الضعيف الذى يظهر فيها حينا بعد حين، كما يظهر الوشل (الماء القليل) المنقطع بين الرمال.

ثم يوجه الخطاب بعد هذا إلى العميد مشيرا إلى رأيه فى الموازنة بين قصيدة دانتى ورسالة الغفران، وكذلك إلى ما ذهب إليه من رأى جديد فى خيال المعرى فيقول: ولا أدرى كيف يخطر لك أن تقرن قصيدة دانتى إلى رسالة المعرى، وبينهما فرق بعيد يكاد يكون كالفرق بين الشعر والتاريخ حين يتناولان الموضوع الواحد؟.

وأحسب رأيك هذا فى خيال المعرى جديدًا لم تكن تراه حين كتبت «ذكرى أبى العلاء» فإنى أذكر أنك جردته - إلا قليلا - من الخيال فى شعره، ولو كانت الرسالة بين يدى لنقلت لك كلامك فى هذا الصدد، ولكنك فى غنى عن نقله، فإن لم تخنى الذاكرة فأنت تقول معى إن الخيال لم يكن من الملكات التى امتاز بها المعرى.

وينتقل العقاد بعد هذا إلى موضوع السخرية لدى أبى العلاء، وكم كان يتمنى لو أن العميد أعطى هذا الموضوع حقه من التحليل والدراسة فيقول:

«وقد وددت لو ذهبت فى تحليل السخرية العلائية إلى أقصى ما تنتهى إليه حرية البحث؛ لأن أبا العلاء لم يكن يسخر من لذات الناس وشهواتهم، وإنما كان يسخر بهذه وبعقائدهم وأديانهم كذلك، وأخالنى قد فعلت ما وددته وإن لم أتوسع فى هذا البحث».

ويتهم العقاد العميد فى ختام رسالته بأنه يرد على ما لم يقرأ: «فأنت تزعم أنك لم تقرأ البلاغ، وقد رددت عليه مرارا، فكيف اتفق

هذا؟ ألعلك ترد على ما لم تقرأ؟ أو لعلك نسيت بإرادتك؟ وقد ينسى الإنسان بإرادته في بعض الأحايين.

وأقول لك أخيرا: حسبك قد عرفت صوت نفسك، وإنه لصوت يسمع على ما فيه من النشوز وتقبل منى التحية والسلام.

وهذه الرسالة كما يتجلى من عرض أهم ما ورد فيها لون من الدراسة النقدية لما كتبه العميد في السياسة وغيرها حول أبى العلاء وبخاصة فى رسالة الغفران.

والعقاد فيما يبعث به إلى العميد - كعادته فى كل ما كتب ـ يحلل ويعلل، ويغوص وراء الأفكار والمعانى فى دقة ورؤية علمية واضحة، فلا غرو أن وصف بأنه جبار العقل، ومن ثم يعد ما قاله الدكتور عبد الرحمن بدوى بإن العقاد لم يقدم للثقافة العربية شيئا ذا بال ولغوا فى القول لا يؤبه به، وقد رددت عليه فى صحيفة الشرق القطرية.

وقد حرصت على قراءة ما كتبه العميد فى السياسة قبل الحديث عن رسالة العقاد إليه،وذهبت إلى دار الكتب المصرية، فقال لى الموظف المختص بأن ما أريد الاطلاع عليه فى قسم الترميم، ولما سألته متى يعود من هذا القسم؟ جاء رده بأنه لا يدرى ثم ابتسم وقال: وربما لا يعود.

وأسفت لأن مؤسسة ثقافية مهمتها الأولى تيسير الحصول على مصادر الفكر والثقافة والمعلومات للباحثين لا تنهض برسالتها كما ينبغى أن تكون، ويكاد يطغى الإهمال وعدم الاكتراث على هذه المهمة.

ولأنى لم أقف على ما كتبه العميد، وجعل العقاد يسطر تلك الرسالة إليه فلا سبيل إلى الجزم بعنوان الكتاب الذى قرظه العميد. ولعلى أستطيع مستقبلا معرفة ذلك فأعود إلى الموضوع مرة أخرى إن شاء الله.

وفى الثامن من أغسطس سنة ١٩٣١م كتب العقاد للعميد رسالة خاطبه فيها بقوله:

سيدى الدكتور الأجل:

تلقيت رسالتك، وشكرت تهنئتك، وإن قدرى لهذه التهنئة لكبير، واغتباطى بما حوته من دلائل العطف النبيل لعميق، وقد تفضلت فذكرت كتبى الأدبية، فيسرنى أن يوافق ذلك قرب الفراغ من كتاب ابن الرومى الذى شرعت فى طبعه قبل سنة، وأرجو أن يتم طبعه بعد أسبوعين، وسأرسله إليك ولكن لا هدية، بل قرضا؛ لأننى انتظر سداده من آثارك الأدبية فى وقت قريب، والتحيات إليك والإجلال.

من المخلص..عباس محمود العقاد

وهذه الرسالة على قصرها تنطق كل كلماتها بآيات التقدير والاحترام والشكر الجزيل للعميد، وإخلاص المودة له، والحرص على قراءة آثاره الأدبية، ولكنها لم تشر إلى موضوع التهنئة، غير أنها أومأت إلى سرور العقاد البالغ برسالة العميد وتهنئته، مما يؤكد عمق علاقة الصداقة والمودة بينهما.

وفى الثانى والعشرين من مايو سنة ١٩٣٤م، كتب العقاد للعميد رسالة قال فيها:

حضرة الأخ الأستاذ العالم الجليل: أهنئكم بما صحت عليه عزيمتكم من إصدار «الوادى»، وأرجو له النجاح الذى يحقق رجاءنا ورجاءكم.

وبعد: فلا أحسبنى أزيدكم علمًا بالأديب مصطفى كامل الشناوى بعد ما خبرتموه فى رئاسة تصحيح الكواكب وفى تحريره، ولكنى أذكركم به، وأود لو يكون له نصيب فى العمل معكم إذا كان مجاله خاليا فى الوادى، ولكم الشكر والتحية والاحترام.

من المخلص.. عباس محمود العقاد

ويلاحظ على هذه الرسالة أن العقاد استهلها بمخاطبة العميد بالأخ العالم الجليل، وهو خطاب يفصح عن أرق المشاعر الوجدانية والتقدير البالغ، كما أن التهنئة بقرب إصدار الوادى تعبر عن سعادة العقاد بما عزم عليه صديقه، وتذكير العميد بأن يتيح للأستاذ الشناوى فرصة العمل فى الوادى يدل من جهة على إنسانية العقاد وحبه للخير، وأنه لا يرد له طلبًا إن استطاع إلى تحقيقه سبيلا. فكل كلمات الرسالة آية على الصداقة الحميمة والأخوة الكريمة على حد تعبير العميد.

وإذا كانت هذه الرسالة قد تضمنت الإشارة إلى الجانب الإنسانى فى حياة العقاد، فإن رسالة أخرى كتبها للعميد تكشف فى جلاء عن ذلك الجانب، لقد كتب إليه يقول:

حضرة الأخ العلامة الدكتور طه حسين بك.

أحييكم تحية الإخاء والإجلال، وأتجه إلى أنصافكم فى أمر لا أعلم منه فوق ما تعلمون، وهو أمر الشبان الأدباء الذين يقومون على ترجمة

دائرة المعارف الإسلامية، وقد سلخوا الآن فى عملهم هذا عشر سنين لو سلخوا بعضها فى طلب لقب علمى لأدركوه، وأدركوا معه منفعته وفخره، أو فى طلب مال لحصلوا منه ما يغنى، ولكنهم خدموا العلم فتخلفوا وفاتهم باسم العلم زملاء لهم لم يخدموه مثل خدمتهم، ومن حقهم أن يطمعوا فى رعايتكم، ويثقوا فى معونتكم، ولهم اليوم كما فهمت مسألة معروضة عليكم فيها ما يعوضهم، ويرجى منه تحسين أحوالهم، فلا أزيد على الإشارة إليها، وفيها عندكم الكفاية، ولكم تحياتى وشكرى والسلام.

المخلص.... عباس محمود العقاد

والعقاد فى هذه الرسالة أطلق على العميد صفة المبالغة «علامة»، كما أن تحيته له كانت تحية الإخاء والإجلال، ثم يقرر أن الإنصاف خلق أصيل من أخلاق العميد، وأن هؤلاء الشبان الذين أنفقوا من عمرهم ما أنفقوا خدمة للعلم فى حاجة ماسة إلى رعايته ومعونته والجانب الإنسانى فى الرسالة جلى صريح لا يحتاج إلى تعليق أو توضيح.

وبعد: فإن تلك الرسائل التى عرضت لها على تباين موضوعاتها يجمع بينها قاسم مشترك، وهو التعبير صراحة أو ضمنا عن أجمل معانى المودة والأخوة، وأن الاختلاف فى الرأى بين الأديبين الكبيرين لم يكن ليفسد ما بينهما من مودة واحترام متبادل، وأنها إلى هذا كانت مجالا للحوار والجدل الأدبى، وكم اشتملت على آراء وأفكار لم تعرفها المقالات والمؤلفات، ولو أتيح الحصول على كل مراسلات هذين

العملاقين لقدمت مادة علمية تلقي مزيدا من الضوء على التاريخ الأدبى في الماضي والحاضر.

لقد كانت العلاقة بين العقاد والعميد علاقة الصداقة المتينة، وكل من يتلمس في بعض الأقوال والعبارات ثغرة تنال من هذه الصداقة، فمثله مثل من يصب في ماء النهر قنينة حبر يظن أنه بهذا سيغير لون الماء، ويفسد طعمه ولكن هيهات!..

رحم الله العقاد والعميد، وجزاهما خير الجزاء كفاء ما قدما للأمة ولغتها من أدب وفكر.



حياة طه حسين فى الأزهر

لا يسع الدارس المنصف لحياة عميد الأدب العربى فى العصر الحاضر إلا أن يقر أن هذه الحياة كانت سلسلة من المواقف المناهضة لوأد الحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية، وأن العميد خاض في سبيل انتصار هذه الحرية معارك كثيرة، وتعرض من أجل هذا لضروب شتى من الأذى والإعنات فما زادته إلا إصرارًا على مواقفه، واستمساكًا بما كان ينادى به ويدعو إليه.

ولا يسمح المجال بتفصيل القول، ومن ثم اجتزئ بعض المواقف وبخاصة ما كان منها فى حياة العميد الدراسية الباكرة، أو فى أيام الطلب بالأزهر.

فى مستهل القرن الميلادى العشرين، وعلى وجه التحديد فى العام الثانى منه التحق طه حسين بالأزهر طالبا به، بعد أن حفظ القرآن الكريم وبعض المتون فى القرية، وكان أول درس سمعه فى حلقات مسجد الإمام الحسين يتعلق بموضوع الطلاق، وكان الذى يلقيه هو الشيخ محمد بخيت المطيعى، وكانت أول عبارة قالها الشيخ فى درسه وسمعها الطالب منه هى: ولو قال الزوج لزوجته: أنت طلاق، أو أنت طلال، أو أنت طلاد وقع الطلاق ولا عبرة بتغيير اللفظ، ولم يستسغ الطالب طه حسين ما سمع وشعر بشىء من الضيق والنفور؛ لأن ما ألقاه

شيخه ليس هو العلم الذى تهفو إليه عقليته، أو يقنع به طموحه، أو يأنس إليه تفكيره، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن طه حسين منذ بداية حياته الدراسية بالأزهر كان يمقت الجمود والتقليد، ويحترم عقله كل الاحترام.

خروجه من الأزهر:

ولم يفكر الطالب النجيب مع هذا فى أن ينصرف عن دروس الأزهر والاختلاف إلى حلقات العلم فيه، بيد أن مرور الأيام زاده ضيقا ونفورا من ذلك المنهج الذى ألفه الشيوخ، ودرجوا عليه فى دروسهم؛ لأنه منهج يقوم على الحفظ أكثر مما يقوم على الفهم، ويردد آراء السابقين وكأنها نصوص مقدسة لا تناقش ولا تعارض، وما أبغض هذا وذاك لدى طه حسين.

وكان لابد أن تحدث لهذا الطالب الذى يحترم عقله ويجهر برأيه فى شجاعة مع هؤلاء الشيوخ الذين عاشوا فى دائرة مغلقة من التفكير أحداث مختلفة تحملهم فى النهاية على طرده من الأزهر، فمثلهم لم يفسح صدره للرأى الصريح والعقلية الذكية التى تؤمن بالحرية الفكرية، ولا سيما إذا كان صاحبها فى مرحلة الدراسة.

فما جرى له مع هؤلاء الشيوخ أنه كان يقرأ مع زميليه أحمد حسن الزيات ومحمود زناتى فى كتاب الكامل للمبرد. فلما بلغوا إلى ما جاء فى هذا الكتاب من أن الفقهاء كفروا الحجاج؛ لأنه قال حين رأى

المسلمين يطوفون بقبر رسول الله ﷺ ومنبره: إنما يطوفون برمة وأعواد.

وعلق العميد على رأى الفقهاء فى تكفير الحجاج بأن هذا بما قاله قد أساء الأدب، ولكنه لا يعد كافرا.

ونقل تعليق العميد فى عبارة مشوهة الناقمون من الطلاب على الزملاء الثلاثة إلى شيخ الأزهر حسونة النواوى، فأمر بطردهم كما أمر الشيخ سيد المرصفى أستاذ الأدب العربى الذى كان يدرس الكامل بعدم تدريس هذا الكتاب.

لما حدث هذا كتب طه حسين مقالا يهاجم فيه الشيخ حسونة هجوما عنيفا، ويذهب به إلى لطفى السيد لنشره فى الجريدة، ويقول لطفى للفتى: هل تريد شتم الشيخ حسونة أو العودة إلى الأزهر؟ ويرد الفتى: لا مصلحة لى فى شتم الشيخ حسونة. وهنا يضع أستاذ الجيل مقال الفتى فى مكتبه، ويسعى لدى شيخ الأزهر للعفو عن الطلاب الثلاثة. والسماح لهم بحضور حلقات الدروس فى الأزهر ويصرح الشيخ حسونة للطفى السيد بأنه لم يطرد هؤلاء الطلاب، وإنما أراد تخويفهم فحسب.

هجوم على المشايخ:

وفى ذكرى مرور عام على إنشاء مدرسة الدعوة والإرشاد التى كان يرأسها الشيخ رشيد رضا أقيم حفل فى فندق «سافوى» حضره عدد من شيوخ الأزهر وعلى رأسهم الشيخ الأكبر سليم البشرى، وفى هذا

الحفل دارت كوؤس الخمر، على الحاضرين، وبالطبع لم يشرب شيوخ الأزهر، بيد أنهم ما كان لهم أن يشاركوا فى حفل ترتكب فيه المنكرات والمحرمات، فإن فى هذا شبهة اعتراف بمشروعية تلك المنكرات، ولهذا هاجم طه حسين هؤلاء الشيوخ هجوما عنيفا، وهجاهم هجاء لاذعا فى قصيدة نشرت فى جريدة الحزب الوطنى استهلها بقوله:

رعا الله المشـــايخ اذا توافوا إلى سافوى من يوم الخميس

وقد أحفظ هذا الهجوم والهجاء الشيوخ وبخاصة شيخ الأزهر، ودبر هذا فى نفسه أمرا، وأسر إلى بعض خاصته بما عزم عليه، وعرف الشيخ المرصفى بما يريده الشيخ الأكبر، وكان يقدر الطالب النجيب؛ لما يلمسه فيه من إرهاصات تبشر بمستقبل مشرق، فذهب إلى تلميذه فى بيته وقال له: أنصحك يا بنى ألا تدخل الامتحان هذا العام، وسأل الفتى فى دهشة لماذا؟ وقال أستاذه فى ألم يشوبه الغضب: إنهم عازمون على إسقاطك. وعرف الفتى الدافع الذى حمل شيوخه على التخطيط لإسقاطه، بيد أنه لم يستجب لنصيحة شيخه الذى يقدره تقديرا خاصا من بين شيوخ الأزهر؛ فهو أستاذ الأدب الذى شرح لهم الكامل شرحا مستفيضا، والفتى النجيب كان مغرمًا بهذا الكتاب الذى قرأه عدة مرات:

ويحدثنى عميد الأدب العربى - رحمه الله - قائلاً:

لم يزعجنى ما عرفته لأنى ذاكرت دروسى مذاكرة جيدة، وألممت بها إلماما وافيا، والذى حدث أن اللجنة التى كان مقررًا أن أمتحن

أمامها كان يرأسها الشيخ عبد الحكم، ولما أوحى إليه الشيخ البشرى بما يريد جاء رد الشيخ عبد الحكم: وإذا كان مذاكرا فكيف يرسب؟.

ويأمر الشيخ الأكبر بإلغاء لجنة الشيخ عبد الحكم، وضاع على هذا الشيخ بسبب موقفه النبيل وحكمه العادل وجبة غداء ونحو ثلاثين قرشا، وهذا كل مكافأة رئاسة اللجنة.

لجنة تأتمر بأمر الشيخ:

وتتألف لجنة أخرى يرأسها الشيخ الدسوقى العربى تأتمر بأمر الشيخ البشرى وتستجيب لما يراه، ويدخل الطالب حجرة اللجنة رابط الجأش، واثقا بنفسه، ويجلس أمام اللجنة ليقدم له رئيسها بقية كوب من الشاى كان يحتسيه قائلا له: اشرب هذا لتحصل لك البركة، ويشرب الطالب سؤر شيخه، وحصلت له البركة فرسب فى الامتحان.

لقد امتحنت اللجنة الطالب فى مادة أصول الفقه، وأجاب الطالب إجابة وافية، ويدلف إلى حجرة الامتحان الشيخ البشرى ليقول لرئيس اللجنة: ارفق به يا شيخ دسوقى حرام عليك، ورفق الشيخ بالطالب رفقا عجيبا، وذلك أن الطالب بعد أن انتهى من امتحان مادة الأصول طلب منه أن يستريح بعض الوقت فى حجرة مجاورة، ويخرج الطالب ليجد شيخ الأزهر جالسا أمام حجرة الامتحان ليتأكد من أن اللجنة حققت ما طلبه منها.

وبعد أن جلس الطالب برهة قصيرة فى تلك الحجرة فوجئ بمن يدخل عليه يحمل معه حافظة أوراقه وكتبه، ومعنى هذا أن الطالب قد رسب فيما امتحن فيه، ولن يواصل الامتحان فى سائر العلوم.

ويحمل الطالب أوراقه غير آسف ولا حزين ليسرع إلى الجامعة الأهلية التى التحق بها منذ إنشائها فى سنة ١٩٠٨م، وأكب على دروسه فى هذه الجامعة ليصبح أول خريج يحصل على شهادة الدكتوراه منها، ثم توفده بعد ذلك إلى فرنسا لينهل من علوم الغرب كما نهل من علوم الشرق. وفى فترة وجيزة يحصل على أعلى الدرجات الجامعية الممتازة.

وتمر الأيام ويصبح طه حسين حديث الناس بما دبج من مقالات، وألف من كتب، وجهر بالحق، ونادى بالحرية، ودعا إلى اشتراكية التعليم وضرورته للإنسان كالماء والهواء، ويسعى الأزهر إلى العميد، ليعرض عليه منحه درجة العالية، ولكن العميد يرفض عرض الأزهر، معللا رفضه بقوله: لا أحب أن يفعل الأزهر معى مثل ما فعل مع الأستاذ على عبد الرازق، فقد منحه الأزهر العالمية، ثم حكم بأخذها منه؛ لأنه جهر برأى أغضب الملك فؤاد، ثم عاد فمنحه الدرجة مرة أخرى.

وبعد: فهذا طرف من مواقف العميد الأديب العبقرى يعبر فى جلاء عن شجاعته فى الحق وانتصاره للحرية الفكرية؛ وإخلاصه فى طلب العلم، وجنوحه منذ حياته العلمية الباكرة إلى الاستقلال فى الفهم والحكم، والنفور من الجمود والتقليد، رحمه الله، وجزاه كفاء ما قدم خير الجزاء.

طه حسين من الأزهر إلى السوربون

تأليف وترجمة: د. عبد الرشيد الصادق محمودى

طه حسين طاقة فكرية متميزة طبقت شهرتها فى حياته العالم كله تقريبا، فقد منحته أكثر من جامعة عالية درجة الدكتوراه الفخرية، وصدرت عنه بالعربية وغيرها دراسات ومؤلفات عدة، وخصصت بعض المجـلات على مستوى العالم بعض أعدادها عن حياته ومؤلفاته وآرائه، وترجمت بعض هذه المؤلفات وبخاصة الأيام إلى معظم لغات العالم، وسعى إليه كثير من المفكرين والباحثين من مختلف الجنسيات والدول لمناقشته والحديث إليه، وشارك فى كثير من المؤتمرات والندوات الدولية بأبحاثه ودراساته، ولم يتحقق هذا لمفكر عربى معاصر - غير العميد - فيما أعلم.

وبعد وفاة العميد كثرت الكتابة عنه، وجمهرة ما كتب ينعت طه حسين بأنه من أعظم مفكرى مصر إن لم يكن أعظمهم فى القرن العشرين، وأن مواقفه الفكرية شامخة، وأنه رائد من رواد النهضة الفكرية والأدبية المعاصرة، إلى غير ذلك من أوصاف الإكبار والإجلال والثناء، وفى مقابل هذا يصفه بعض الباحثين بأوصاف تصادم ما أومأت إليه آنفا.

وأحدث ما صدر عن العميد كتاب: طه حسين من الأزهر إلى السوربون للدكتور عبد الرشيد الصادق محمودى، وهذا الكتاب فى الأصل رسالة دكتوراه قدمت بالإنجليزية إلى جامعة مانشستر سنة ١٩٩٥م، ثم ترجمها صاحبها إلى العربية، ونشرها المجلس الأعلى للثقافة فى سلسلة المشروع القومى للترجمة، ويتركب منهج هذه الدراسة الجامعية من تصدير ومقدمة وسبعة فصول وخاتمة بالإضافة إلى ملحق عن اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد العربية.

جاء فى التصدير أن فكرة الدراسة خطرت للمؤلف منذ عدة سنوات، وتتناول هذه الفكرة الدور الذى أداه طه حسين كوسيط بين الثقافات الشرقية والغربية، بيد أنه حين أقدم على البحث وانهمك فيه تحول اهتمامه ـ شيئا فشيئا وعلى نحو تلقائى ـ إلى تعليم طه حسين فى حد ذاته، فقد كان هذا أمرا موفقا وضروريا؛ لأنه ليس من الممكن أن نفهم العميد فى نضجه الفكرى دون أن ندرس كيف تشكل تفكيره فى مراحل تعليمه المختلفة.

واشتملت المقدمة على الأسباب التى حملت المؤلف على اختيار هذا الموضوع، وقد أفاض القول فى هذه الأسباب، وهى فى مجملها محاولة لتقصى مسيرة طه التعليمية من الكتاب إلى السوربون، أو الكشف عن الطريقة أو الطرق التى تعامل بها العميد مع التأثيرات التى تلقاها فى إطار تعليمه أو تكوينه ككاتب، أو فى إطار تحقيقه لذاته، وذلك لفهم التطورات التى طرأت على تفكيره فى المراحل التى تلت فترة الطلب والتكوين.

وأما الفصل الأول حمل عنوان: شوق إلى العالم، فقد عرض فيه الباحث بإجمال وإيجاز لحياة طه حسين، ورحلته التعليمية، كما رواها فى سيرته الذاتية «الأيام» مع التأكيد على معاناته للعمى كنوع من العزلة التى تستدعى بالضرورة الرغبة فى التحرر منها، والخروج إلى العالم الرحب.

وتناول الفصل الثانى تحت عنوان: «من علوم الدين إلى درس الأدب» الفترة الأزهرية فى تعليم طه حسين مع تفصيل القول بعض التفصيل فى التيار الفكرى المحافظ الذى تمثله المؤسسة الأزهرية والاتجاه الإصلاحى الذى كان يمثله الإمام محمد عبده ومدرسته، وما نجم عن هذا من ضيق العميد بالمناهج الأزهرية وتمرده عليها، واكتشافه للأدب والإقبال على دراسته.

ويبرز الفصل الثالث وعنوانه: «اكتشاف التاريخ» أخطر نقطة تحول فى حياة العميد بأسرها؛ لأنه يتناول لقاءه مع لطفى السيد وتعليمه فى الجامعة المصرية، وفى هذه المرحلة توصل طه إلى اكتشافه للتاريخ، وكان فى المرحلة الأزهرية قد اكتشف الأدب واهتم به.

وفى الفصل الرابع حديث عن الكتابات المبكرة لطه حسين، وهذه الكتابات على تنوعها تعرض للدراسات التاريخية، وفيها حاول العميد أن يستوعب ويطبق ما أخذه عن المستشرقين الذين درسوا له فى الجامعة الأهلية، وأن يكون لنفسه رأيًا فى التاريخ، ومن ثم كانت رسالته عن أبى العلاء تتويجًا لهذه المحاولة التى سبقتها دراسات نقدية عن تاريخ الأدب واللغة العربية.

الثقافة الفرنسية:

وحرص الباحث فى الفصل الخامس وعنوانه: «الرجوع إلى المصادر الفرنسية» على أن يثبت أن طه حسين قد وقف على قدر لا بأس به من الثقافة الفرنسية قبل سفره إلى فرنسا، وأن التقاء طه بهذه الثقافة بدأ فى سنة ١٩٠٧م، وهو لما يزل طالبا فى الأزهر عن طريق علاقته بلطفى السيد وعبد العزيز جاويش، ثم كانت مرحلة الدراسة الجامعية التى وقف فيها عن طريق أساتذته الغربيين على طرف من المناهج العلمية التى كان لها أثرها فى فكره، والتى تعد البذور الأولى لاندفاع العميد نحو المستقبل، يتخطى بها أساتذته الأوربيين نحو المصادر الأصلية الفرنسية للفكر الوضعى.

وأما الفصل السادس وعنوانه: «أفول الوضعية» فقد تحدث عن حياة طه حسين فى فرنسا، فى مونبلييه أولا، ثم فى باريس، وكيف التقى بالفتاة التى أحبها وتزوجها وركز الفصل بعد هذا على المقررات التى درسها فى السوربون والأساتذة الذين تعلم عليهم، وخلص من هذا للكلام إلى الأزمة الوضعية، والشك الديكارتى والأزمة المنهجية.

وتضمن الفصل السابع والأخير وعنوانه «مصالحات» عدة موضوعات تتفيأ كلها هدفا واحدا، وهو وضع مجموعة من التركيبات أو المصالحات التى تعبر عن أهم السمات المميزة لفكر طه حسين فى مراحل نضجه.

ولخصت الخاتمة رحلة العميد التعليمية والفكرية، كما قدمت تقويما لأداء العميد الثقافى، مع الاهتمام بوجه خاص بجانبين مترابطين، وهما: مذهبه فى الحداثة، ونزعته الإنسانية.

وأما الملحق فهو تقرير أعده ماسينيون بتكليف من وزارة المعارف الفرنسية عن دراسة اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد الناطقة باللغة العربية، وذلك بوصفه محاضرا فى تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية فى الفترة من ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٢م، حتى ١٠ يونيه ١٩١٣م، وهذا المقرر دعمته إدارة العلاقات الخارجية الفرنسية.

ويتكون هذا التقرير من أربعة أقسام وخاتمة.. تحدث القسم الأول عن السمات العامة للاتجاهات الفلسفية الراهنة فى البلاد الناطقة باللغة العربية.

ودرس القسم الثانى الحركة الفلسفية فى مصر باعتبارها المركز الحقيقى لهذه الحركة فى اللغة العربية، وذلك من خلال الجامعة المصرية والمؤسسة الأزهرية.

وفصل القسم الثالث أهم ما جد من مقررات فلسفية ومنطقية فى الأزهر، ودار العلوم، ودار الدعوة والإرشاد.

ونوه القسم الرابع بالإشارة إلى الأعمال الفلسفية المطبوعة باللغة العربية سواء أكانت نشرًا لنصوص قديمة أم طباعة لمؤلفاته جديدة.

وبينت الخاتمة الموقف العام من التجربة العملية لتدريس المقرر الذى عهد به إلى ما سينيون، فهناك من رحب به وأثنى عليه، وهناك من نقده وبخاصة بالنسبة إلى بعض تعريفات الاصطلاحات الفلسفية كما قررها بعض فلاسفة الإسلام والغرب.

اهتمام بمرحلة التكوين:

ويتضح من هذا العرض المجمل لما تضمنه كتاب طه حسين من الأزهر إلى السوربون من قضايا أن هذا الكتاب دراسة علمية عميقة تختلف في منهجها وعناوين فصولها وأسلوب عرضها للموضوعات عما ألف من قبل عن العميد. وأنها انفردت بالاهتمام بمرحلة الطلب والتكوين في حياة طه حسين، وهذه المرحلة لم تكن تلقى من المؤرخين والباحثين العناية التي ينبغي أن تحظى بها؛ حتى تكشف عن الموارد الفكرية التي أسهمت في تكوينه ثقافيا وأدبيا.

ومع الجهد العلمي الذي بذل في إعداد ذلك الكتاب، فإن كل عمل بشرى لا يسلم من هنات هينات وغير هينات، ولعل الملاحظات التالية تعبر، عن وجهة نظر يؤخذ منها ويرد عليها، وأهمها ما يلى:

أولا: إن الحديث عن التيارات المذهبية والفكرية التي كان لها دور مهم في التكوين العقلي للعميد وسيلة لا غاية، ولكن المؤلف الفاضل أفاض القول في هذه التيارات، بحيث طغى حجم المادة العلمية فيها على ما كتب عن طه حسين، اللهم إلا ما جاء عن رسالة ابن خلدون، ومن ثم يكاد يكون الكتاب دراسة للفلاسفة والمفكرين في الربع الأول من القرن العشرين، وليس دراسة لفكر العميد؛ لأن الحديث عنه جاء مقتضبا بوجه عام.

ثانيا: إن المرحلة الأزهرية لم تأخذ حقها في الدراسة الوافية مع أهميتها وأثرها في فكر طه حسين وأدبه؛ فالعميد وإن ضاق ذرعا

بالمناهج الأزهرية، عرف في هذه المرحلة طريقه إلى قراءة الأدب ودراسته في حلقة أستاذه سيد المرصفى، كما أنه تعرف في هذه المرحلة على زميلين، هما: أحمد حسن الزيات، ومحمود زناتى، وجمعت الصداقة وحب الأدب بين هؤلاء الثلاثة على الإقبال في نهم لقراءة أمهات كتب التراث في الأدب العربى، وكان لهذا أثره في طبع أسلوبه في كل نتاجه بطابع الأصالة الأدبية وليست ظاهرة التعبير عن الفكرة الواحدة أو المعنى الواحد في أسلوب العميد بأكثر من صياغة إلا دلالة على الثراء اللغوى، والإحاطة الدقيقة بالمفردات والاشتقاقات.

وهذا الثراء اللغوى مرده إلى حب التراث والعكوف على قراءته في كل مراحل حياته، ومن ثم كان لهذا التراث أثره في تميز كل مؤلفات العميد حتى ما كان منها مترجمًا من لغة غير عربية، بالسليقة اللغوية.

ثالثا: ذكر الدكتور عبد الرشيد أن المستشرقين الثلاثة: نالينو وسانتلانا، وماسينيون كان لهم دورهم المهم في توجيه العميد، نحو العالمية وعقد الصلات والمقارنات بين الحضارات واللغات المختلفة، وقد يصدق هذا القول على كل من نالينو وسانتلانا؛ أما ماسينيون فقد حدثنى عنه العميد بما يوحى بأنه لم يكن يطمئن إليه، قال، إن النشاط العلمي للمستشرقين لا يجب أن يغمض عيوننا عن نشاطهم المريب في مجال السياسة الاستعمارية، وأذكر لك مثلا أن ماسينيون وهو مستشرق فرنسى مشهور، وكان عضوًا في مجمع اللغة العربية، وله

أبحاث فى الدراسات العربية والإسلامية، هذا المستشرق كان موظفًا فى إدارة المخابرات فى وزارة الخارجية الفرنسية، وكان إذا قدم إلى مصر فإنه يقابل الملك فؤاد، ثم من بعده فاروق ولكنه بعد قيام ثورة ١٩٥٢م حاول مقابلة عبد الناصر فلم يفلح.

أما نالينو فقد قال عنه العميد: لقد أحببت هذا الأستاذ كل الحب، كما أحببت أستاذى الشيخ سيد المرصفى، ولا أنسى دروس نالينو؛ فقد كانت بلغة عربية فصيحة، وكان لا يتكلم العامية؛ لأنه لا يحسنها.

فتأثير ماسينيون على كتابات طه حسين ليس حاسما، كما يرى الدكتور محمودى.

رابعا: نظرا؛ لأن موضوعات كتاب طه حسين من الأزهر إلى السوربون متداخلة ومتكاملة كان التكرار فى بعض الأفكار والنصوص أحيانا، وما يترتب عليه من تكرار بعض الجمل والعبارات والمفردات، ولا بأس بهذا ما دام الأمر لا يتجاوز حدود الضرورة العلمية، ولا يدخل فى باب التكرار المخل أو المل.

ومع هذا اشتمل الكتاب على تكرار ليس له مسوغ، فمثلا عبارة: «القول بإن القرآن - على خلاف الشعر الجاهلى - هو أول وثيقة صحيحة فى تاريخ العرب يتضمن أصدق صورة للأوضاع اللغوية والدينية والفكرية فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام»، هذه العبارة تكررت لفظا أو معنى أكثر من مرة.

خامسا: إن الفلاسفة والمفكرين الغربيين وغيرهم الذين ورد الحديث عنهم وعن أستاذيتهم للعميد، كان القارئ فى حاجة إلى مزيد

من التعريف بهم أو الترجمة لهم ترجمة موجزة فى الهامش، فليس كل القراء على دراية بهؤلاء الفلاسفة والمفكرين.

كذلك الحديث عن المناهج الفكرية كالوضعية وغيرها لم يقدم الصورة التى تمد القارئ بمعلومات واضحة عنها، ولعل المؤلف فى حديثه عن هذه المناهج التى درسها فى مصادرها الأصلية دراسة وافية يظن أن القارئ فى مستواه من حيث المعرفة بها.

سادسا: لجأ الدكتور عبد الرشيد إلى الترجمة الحرفية لبعض المصطلحات دون أن يعرف بها أو يعبر عنها بلغة عربية، ومن ذلك مثلا: «الاسكوائية الأزهرية»، وقد تكرر هذا المصطلح أكثر من مرة، «والدجماطية الأزهرية»، «والأوليجاركية»، «وكاريزمة» عبد العزيز جاويش، «والانطولوجية، والكوزمولوجيا، والفيلولجيا».

مثل هذه المصطلحات كان على المؤلف أن يشرحها ما دام لم يجد لها مقابلا عربيا، فالقارئ غير المتخصص لن يفهم هذه المصطلحات وما تعبر عنه، والكتاب مترجم للقارئ العربى فى موضوع يهم كل المثقفين مهما تكن تخصصاتهم، أو ثقافاتهم.

سابعا: جاء فى ص ٢٥٩: ومن الممكن أن نجد شواهد أخرى على أن طه حسين فى كتابه فى الشعر الجاهلى كان يؤيد وجهة نظر دوركايم، وذلك عندما شكك فى الصدق التاريخى للقرآن فيما يتعلق بإبراهيم وإسماعيل، فهو يقول: إن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى.

هذه القضية الخطيرة كانت فى حاجة من المؤلف إلى وقفة يمحص فيها الحقيقة العلمية، ولكنه مر عليها دون دراسة لها، وجاءت الإشارة إلى مباركة جاك بيرك لرأى طه حسين لتؤكد أن العميد كان يشكك فى صدق النص القرآنى.

وسألت العميد عن هذا الموضوع، فقال لى: إنى لم أشكك فى صدق التوراة والقرآن، ولكنى قلت: إن العلم لم يثبت وجودهما. فسألته ماذا تعنى بأن العلم لم يثبت وجودهما؟ قال: أقصد أنه ليست هناك آثار ولا حفريات تدل على وجودهما، ثم قال: إن السبب فى حفظ قضية الشعر الجاهلى أن ما اتهمت به من أنى أنكر أخبار القرآن أن قاضى المحكمة لم يجد فيما كتبت ما يدل على إنكارى لأخبار القرآن، وكل ما هناك أنى أعرض قضية من وجهة نظر النصوص المقدسة والعلم.

ثامنا: إن مهمة الخاتمة فى المنهج العلمى تسجيل أهم ما وصل إليه الباحث من نتائج، وليس من مهمتها تلخيص البحث كله، وإنما تقديم خلاصة وافية لأهم النتائج العلمية، وما أضافه البحث من أفكار جديدة، وحقائق علمية مبتكرة، وقد يشفع الباحث هذه الحقائق وتلك النتائج ببعض المقترحات التى تفتح مجالا لمزيد من الدراسة حول الموضوع والقضايا التى تتصل به أو تدور فى فلكه، ولا تتجاوز هذه الخاتمة غالبا أربع صفحات.

إن الدكتور عبد الرشيد كتب خاتمة بلغت نحو عشرين صفحة، لخص فيها بعض فصول الدراسة، وكرر بعض ما سبق القول فيه،

وناقش بعض المعاصرين فيما ذهبوا إليه حول طه حسين، ولا يكاد القارئ ينتهى من هذه الخاتمة إلا بأمشاج من المعلومات دون أن تضع يده على نتائج موجزة مرتبة تقدم تصورا عاما عن أهم ما انتهى إليه البحث من نتائج علمية أو حقائق تاريخية.

وبعد: فإن تلك الملاحظات كما أسلفت وجهة نظر يؤخذ منها ويرد عليها، وهى لا تقلل من أهمية الدراسة وقيمتها العلمية، فقد ألقت الضوء على مرحلة مهمة فى حياة العميد، فضلا عن لغتها العربية الأصيلة التى تدل على تمكن المؤلف من لغة الضاد كما هو متمكن أيضا من اللغة الإنجليزية، وإن وردت بعض الفقرات التى لا تسلم من الاضطراب، ولعل سبب ذلك يرجع إلى الأخطاء المطبعية فالسطور الأولى فى ص ١٢٢، تحتاج إلى مراجعة، كذلك وردت كلمة «تماهى» مرتين فى ص ١٣١، وص ١٣٩، وكنت أطمع من المؤلف أن يفسر هذه الكلمة، فهى غير مطروقة لأذن القارئ العادى.

وشكرا جزيلا للمؤلف المترجم الذى أتاح لى أن أعيش مع دراسته لحظات فكرية ممتعة عن شخصية عرفتها عن كثب، ودونت عنها بعض المذكرات التى تدخل فى باب الرواية أكثر مما تدخل فى باب الدراسة.

رحم الله العميد وجزاه عما قدم خير الجزاء

* * *

مواقف إنسانية فى حياته

يأخذ البعض على عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أنه كان شديد الخصومة مع من يخالفه فى الرأى، وقد يتخذ هذه المخالفة ذريعة للنيل منه أو الإساءة إليه، ويضربون مثلا لذلك بما كان بين العميد والدكتور زكى مبارك، أو بين العميد ومصطفى صادق الرافعى، ولكن الحقيقة أن العميد لم يكن يرى فى الخصومة الفكرية وسيلة للعداوة التى تحمل على الكيد أو التآمر؛ فقد كان إنسانا رقيق الشعور، طيب القلب، يستجيب لكل طارق، ويسمع لكل شكوى، ويصدق بكل ما يسمعه، وكان يتألم أبلغ الألم إذا قرأ خبرا عن كارثة أو حادثة، ومن ثم كانت أخبار الحروب تزعجه كل الإزعاج، وكذلك أخبار المجاعات والأوبئة.

وقد حدثنى العميد كثيرا عن علاقته بطائفة من أعلام عصره، وكيف أحسن إلى بعضهم، بيد أنهم لم يدفعوا بالتى هى أحسن وتآمروا عليه، ومن هؤلاء الدكتور أحمد أمين والدكتور عبد الرازق السنهورى، فقد كان الأول يعمل بالقضاء الشرعى، وكان يضطر إلى الذهاب إلى بعض المناطق النائية: «وقد سعيت لنقله إلى كلية الآداب، وكان يلجأ إلىّ فى علاج مشكلات أبنائه فى التعليم، وكنت أعاونه ما استطعت، وأذكر أنى يسرت لبعض هؤلاء الأبناء فرصة السفر إلى الخارج للدراسة على حساب الدولة».

«أما الثانى فقد ساعدته في الترقية إلى درجة أستاذ، ثم في تعيينه قاضيا بمحكمة المنصورة المختلطة، وبعد مدة طلب منى أن يعمل فى قضايا الحكومة، وتبين لى بعد ذلك أن الدكتور أحمد أمين تنكر لى، وانضم إلى الدكتور السنهورى فى التآمر ضدى، فقد كان النقراشي مع النحاس، ثم انشق عليه، وانضم السنهورى إلى النقراشي، وخاصة فى السياسة، وحين عين وكيلا لوزارة المعارف مع النقراشي أخذ يكيد لى ويتآمر علىّ وأنا لا أدرى.

لقد أحسنت إلى كليهما وكنت أعمل على تحقيق ما يطلبان منى، ولكنهما انقلبا علىّ، ومكرا بى، ولست أدرى سببا لهذا».

سلوك زكى مبارك

وأما ما يقال من أن الدكتور طه كان من وراء خروج زكى مبارك من الجامعة، فإن هذا غير صحيح فقد قال لى العميد: إن خروج زكى مبارك من الجامعة يرجع إلى سلوكه الشخصي، فمثلا ذكر لى فؤاد سراج الدين أنه كان ينجح فى الامتحان حين كان يدرس بكلية الآداب قبل أن يتلقى دروس كلية الحقوق، فقد كان النظام فى ذلك الحين يفرض أن يدرس طلبة كلية الحقوق فى كلية الآداب بعض المناهج فى اللغة والأدب، قبل دراسة علوم الحقوق، وذكر لى فؤاد أنه كان لا يذاكر علوم الآداب، وكان ينجح بفضل مجاملة زكى مبارك له.

وقلت للعميد: وما رأيكم فيما يذهب إليه البعض من أنكم عملتم على إقصاء الدكتور أحمد ضيف من الجامعة، وشغلتم أنتم مكانه،

وأنكم وقفتم من الدكتور على العنانى موقفا مماثلا؟ ورد العميد فى حماس وانفعال: أُقْسِمُ أن هذا كذب، وأنِّى ما سعيت للإضرار بأحد فى سبيل منفعة خاصة، والحقيقة أن الجامعة بعد أن أشرفت عليها الدولة وأصبحت رسمية عينت فيها أستاذا، فغضب الدكتور ضيف والدكتور عنانى لعدم تعيينهما كما عينت وأنا لم أسع للتعيين فى درجة أستاذ، والملك فؤاد هو الذى اقترح تعيينى فى هذه الدرجة فما يقال من إننى سعيت للإضرار بأحد في سبيلِ مصلحة خاصة غير صحيح.

الهروب من طه حسين

وفى لقاء فى منزل العالم الجليل، والباحث الضليع والمفكر الثبت الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة، وعلى مائدة العشاء الفاخرة التى تعبر عن الكرم الحاتمى دار حديث فكرى بين الحاضرين وفيهم المغربى والتونسي والسورى والمصرى، وتناول هذا الحديث فيما تناول طرفا من المواقف الإنسانية للعميد؛ فقد قال الدكتور الشكعة: لقد التحقت بكلية الآداب طالبا بقسم اللغة العربية، ودرس لنا الدكتور طه حسين الأدب العربى فى سنوات الدراسة الأربع، وكنت أناقشه معترضا على بعض ما يثيره من قضايا وآراء، ومنها نسب المتنبى؛ فالعميد كان يذهب إلى أن هذا الشاعر مجهول النسب، فهو لقيط، ولكنى عارضته فى هذا، وقلت: إن المتنبى ليس مجهول النسب فهو ابن شرعى لأبيه، وما كان العميد يرد على اعتراضى أو يفند رأيي، وفى السنة الثانية

حذرنى زملائى، مما قد أتعرض له بسبب مناقشة العميد، فيما يبديه من آراء، ومنهم من قال لى: إنه سيخرب بيتى، وفكرت مليًّا فى الأمر، فقررت ترك قسم اللغة العربية والالتحاق بقسم التاريخ، ورحب بى رئيس هذا القسم وهو الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم، الذى كان عميدا للكلية، ومكثت نحو شهر ونصف أدرس فى قسم التاريخ.

وفى يوم أخبرنى عميد الكلية أنه يريد الحديث معى فى أمر مهم، وكانت المفاجأة أن هذا الأمر يتعلق برغبة الدكتور طه حسين فى لقائى، ولم يذكر لى الدكتور إبراهيم سببا لهذا، فقلت: لعله يريد أن يعيدنى إلى قسم اللغة العربية فأرجو منك أن تحمينى، فقال عميد الكلية: لا أحد يستطيع أن يحميك من طه حسين!.

ويستطرد الدكتور الشكعة قائلا: وشعرت بشيء من القلق والخوف، ولم أجد بدا من الذهاب إلى الدكتور طه فى مكتبه بالكلية، فقال لى بعد تحيته:

من أذن لك بترك قسم اللغة العربية، فقلت: أنت يا أستاذى، وكنت قد قدمت طلب التحويل إلى سكرتير الدكتور طه، فريد شحاته، فوقع عليه بخاتمه دون أن يأخذ رأيه فيه فقال: لم آذن لك، عد إلى قسمك، وانتهى اللقاء، وتركت قسم التاريخ، وواصلت الدراسة بقسم اللغة العربية، وعرفت من زملائى أن الدكتور طه سأل عني؛ لأنه لم يعد يسمع صوتى معترضا أو مناقشا، فلما قيل له بأنى انتقلت إلى قسم التاريخ أصر على أن يعيدنى إلى قسم اللغة العربية، ثم قال

الدكتور الشكعة: ومرت الأيام بعد تخرجي في كلية الآداب، وأهديت إلى أستاذي عميد الأدب العربي أول كتاب ألفته، وكان بعنوان «قطوف من الأدب والفن»، وجلست معه نحو ساعتين في بيته، غمرني فيها بمشاعر الأستاذية الواعية، والأبوة الحانية، والعطف الكريم.

ويذكر الدكتور الشكعة أن العميد سئل يومًا عن أفضل ما كتب عنه فقال: ما كتبه مصطفى الشكعة، وذلك لأني كتبت عنه نحو ثلاثين صفحة دونٍ أن أذكر فيما كتبت كلمة صريحة عن فقد بصره، وإنما كنت أقول: يُقرَأ له؛ لأن طه حسين كان يضيق بالحديث بأسلوب مباشر عما تعرض له في طفولته الباكرة، فعاش طول عمره كفيفا.

الدكتور طه والرافعي

وتطرق الدكتور الشكعة بعد هذا إلى ما كان من طلبة قسم اللغة العربية من استياء، مما قاله الدكتور طه عن مصطفى صادق الرافعي، وقد تجمهروا أمام مكتبه، وتحدث بلسانهم الطالب مصطفى الشكعة، وقال لهم العميد: لقد تعجلتم في الحكم، وكان عليكم أن تنتظروا حتى أفرغ من الحديث عن الرافعي في المحاضرة القادمة، وفي هذه المحاضرة أثنى طه حسين على الرافعي ثناء طيبا، وأفاض في الحديث عن الحرية وأهم خصائصه ومنزلته في الأدب الحديث، مما أذهب من نفوسنا ما ألم بها من قبل من ضيق وانفعال، وحمل ابنة الرافعي - وكانت طالبة بالكلية - على أن تذهب إلى العميد لتشكره على ما قاله

عن والدها، وقد قال لها، أنت يا زينب فى مرتبة ابنتى أمينة، فأنا فى حكم والدك، ولعلك لا تشعرين بحرج، إن احتجت من أبيك شيئا.

وقد قال لى العميد: إنه سعى لمنح ابنة الرافعى مجانية التعليم بالجامعة.

ولم يكد الدكتور الشكعة ينتهى مما قصه على الحاضرين من موقف الدكتور طه منه ومن الرافعى، حتى تحدث الأستاذ الدكتور محمد على مكى أستاذ الأدب الأندلسى، فقال: بعد تخرجى فى كلية الآداب أعلن عن عدة بعثات كان بعضها فى صميم تخصصى، وقدمت الأوراق المطلوبة، ثم ظهرت نتيجة الترشيح دون أن يكون اسمى ضمن الذين رشحوا، فكتبت رسالة مطولة إلى الدكتور طه حسين، وكان وزيرا للمعارف، وأشرت فى رسالتى إلى أنى أحق من سواى، ولكن يبدو أن الترشيح يخضع لمعايير غير علمية، وأن علاقة معرفة أو قرابة لمن يتقدم لبعثة بشخصية مسئولة من أهم مسوغات الترشيح، ونشرت الرسالة صحيفة أخبار اليوم؛ فقد كان لها موقف مناوئ من حزب الوفد، وبعد نحو أسبوعين تلقيت برقية لمقابلة وزير المعارف، وقال لى الدكتور طه بعد لقائه:

لقد أخطأت فيما كتبت، وما كان لك أن تتهم الوزارة بالمجاملة فى الترشيح، وكان يمكن أن تقدم للمساءلة القانونية بسبب ما جاء فى رسالتك، وكان ردى على الوزير أنى على استعداد لتحمل مسئولية ما جاء فى رسالتى، كما أنى سأرفع قضية على الوزارة لأخذ حقى،

وعقب طه حسين على ما قلته بقوله: لا تغضب، فهناك إعلان جديد لبعثة وأنني مرشح لها، وكانت هذه البعثة إلى أسبانيا لدراسة الأدب الأندلسي.

وسافرت إلى أسبانيا دون أن أعرف حرفا واحدا في اللغة الأسبانية، وعكفت على دراسة هذه اللغة حتى أتقنها، ثم حصلت على الدكتوراه في فترة زمنية لم تتجاوز أربع سنوات.

وقال الدكتور مكي عن كتاب مستقبل الثقافة: إن الحملة الظالمة على هذا الكتاب حالت دون الإفادة مما اشتمل عليه من أفكار وآراء إيجابية وما أكثرها! ولم نصل حتى الآن إلى تحقيق بعضها.

وجاءت تعليقات بعض الحاضرين على ما قصه كل من الدكتور الشكعة والدكتور مكي لتؤكد أن طه حسين كان إنسانا سمح النفس واسع الصدر، محبًا للخير، فكان لا يبخل على من يسعى إليه طالبا عونه ومساعدته ببذل ما يستطيع بذله لبلوغ ما يريد، وما كان الاختلاف بينه وبين غيره في الرأي باعثا على المكر السيئ، والحقد الأرعن والكيد الخبيث، وما كان يؤلمه أشد الألم إلا إساءة من أحسن إليهم، وانصراف بعض أصدقائه ومن كانوا يلوذون به في العقد الأخير من عمره ويعده نكرانا للجميل وعقوقا، وهو شيء فظيع على حد قوله رحمه الله.

* * *

هل غير د. طه حسين آراءه
فى الشعر الجاهلى ومستقبل الثقافة؟

يعد ما كتبه العميد الراحل فى الشعر الجاهلى ومستقبل الثقافة فى مصر من أهم مؤلفاته التى أثارت قضايا فكرية شغلت الرأى العام، وكتب فى مناقشتها والرد عليها عدة دراسات، واتخذ منها بعض الباحثين حجة فى اتهام طه حسين بعدائه السافر للإسلام، وتبعيته للفكر الاستشراقى.

وما كتبه العميد فى الشعر الجاهلى لا يخرج عن دائرة الحكم على هذا الشعر بالوضع، فهو منحول غير صحيح النسبة إلى عصر ما قبل الإسلام، ومن ثم لا سبيل للتعويل عليه فى دراسة هذا العصر، والوقوف على أبعاده الثقافية والاجتماعية والسياسية، والقرآن الكريم هو وحده الذى يقدم لنا الصورة الصحيحة للعصر الجاهلى.

ولست فى هذه الكلمة بصدد المناقشة العلمية لفكرة كتاب الشعر الجاهلى، أو الأدب الجاهلى وما تمخض عنها من آراء، وإنما أردت بكلمتى الإشارة إلى أن طه حسين ظل على موقفه من ذلك الشعر بوجه عام حتى توفاه الله، فلم يعدل عن رأيه فى أن الشعر الجاهلى موضوع، خلافا لما ذهب إليه بعض الباحثين من أنه عدل عن رأيه؛ فقد كتب

الأستاذ سعيد الأفغانى فى عدد يناير ١٩٧٧م من مجلة العربى كلمة تحت عنوان «إنصافا لطه حسين» حاول فيها أن يثبت أن العميد رجع عن رأيه فى الشعر الجاهلى، فلم يعد لديه منحولا، وكانت الحجة التى اعتمد عليها الأستاذ الأفغانى رواية نقلها عن أستاذنا الدكتور أحمد الحوفى رحمه الله، وهذا عزاها إلى الأستاذ إبراهيم مصطفى صاحب كتاب «إحياء النحو» وعضو المجمع اللغوى رحمه الله، فقد قال: إنه سمع من العميد سنة ١٩٥٠م أنه رجع عن رأيه فى الشعر الجاهلى، وأن العميد قال هذا بعد أن أهديت إليه بعض مؤلفات الدكتور الحوفى عن «الحياة العربية من الشعر الجاهلى» و «الغزل فى الشعر الجاهلى»، و «المرأة فى الشعر الجاهلى»، وأن الأستاذ إبراهيم مصطفى طلب من العميد أن يعلن رجوعه عن رأيه فابتسم وقال: لا، لا، لا.

هذه الرواية - ولا مطعن فى صحتها - يتخذها الأستاذ الأفغانى حجته فى رجوع العميد عن رأيه، وعلل رفضه لإعلان رجوعه بأنه كان يأمل الإعلان عنه بعد تراخى الزمن، ونفاد الطبعة، رحمة بالناشر، وكأن العميد بهذا التعليل يخاف شيئا ما يحول بينه وبين الجهر بما انتهى إليه فى قضية الشعر الجاهلى. وما كان العميد فى القضايا العلمية وغيرها يعرف الخوف أو الغمغمة، وإنما كان يعرف الشجاعة والصراحة والوضوح.

لقد رافقت العميد فى العقد الأخير من عمره وقرأت له كثيرا من المؤلفات العربية القديمة والحديثة، وجاء ذكر الشعر الجاهلى أكثر من مرة. فما سمعت منه إلا شكه فى هذا الشعر وطعنه فى صحته.

وأما الكلمة التى نقلها الأستاذ إبراهيم مصطفى عن العميد فهى لا تعدو أن تكون كلمة مجاملة وتحية وشكر، وكان الدكتور الحوفى يراها شهادة علمية يعتز بها لما كتبه فى الشعر الجاهلى، ورددها فى أكثر من مناسبة وسمعتها منه أكثر من مرة، ولهذا لا يمكن الجزم بأن طه حسين عدل عن رأيه اعتمادا على كلمة قالها فى مناسبة إهداء بعض المؤلفات إليه، ثم يلزم الصمت أكثر من عشرين عاما دون أن يكتب عن رأيه الجديد.

وإذا كان ما كتبه العميد فى حديث الأربعاء عن الشعر الجاهلى يشير إلى أنه غير من رأيه فى هذا الشعر، فإن ما جاء فى هذا الكتاب يؤخذ منه أن هناك تطويرا فى موقف العميد من شعر ما قبل الإسلام، وأنه اعترف ببعض هذا الشعر، ولكنه لا يدل بحال على أن هناك عدولا مطلقا عما أعلنه فى الأدب الجاهلى، وتدور الفكرة الأساسية لكتاب مستقبل الثقافة فى مصر حول وجوب أن تسلك مصر سبيل الحضارة الأوربية برمتها؛ حتى تستطيع أن تجتاز مرحلة التخلف، وتلحق بركب التقدم، ومن العبارات الشهيرة التى وردت فى هذا الكتاب: إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهى أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو مخادع أو مخدوع.

ولا مراء فى أن كل ما جاء فى كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» لا يمكن الأخذ به أو موافقة المؤلف عليه، وأن تطبيقه حرفيًا يعزل مصر إسلاميا وعربيا، ولا يكفل لها تقدما حقيقيا، ومع هذا لم يكن له من رد الفعل مثل ما كان لكتاب «فى الشعر الجاهلى»، ويبدو أن السياسة لعبت دورا كبيرا فى شغل الرأى العام والحكومة بهذا الكتاب، فالملك فؤاد كان يكره العميد وبخاصة بعد أن نادى بالدستور وتحدث عن الديمقراطية، وهو الذى حرض الأزهر ضده، وقد اعترف بهذا الشيخ أبو الفضل الجيزاوى شيخ الأزهر، حين سأله عبد الخالق ثروت عن الحملة التى يقوم بها الأزهر ضد طه حسين، فقال الشيخ: الأزهر غير مسئول عن هذه الحملة، فقال عبد الخالق: ومن المسئول؟ ورد الشيخ: الملك فؤاد.

وإذا كان طه حسين لم يعدل عن رأيه فى الشعر الجاهلى بوجه عام، فإنه قد عدل عن طرف مما ذهب إليه من آراء فى كتاب مستقبل الثقافة فى مصر، فقد قال لى يوما: إنه لا يعيد النظر فى مؤلفاته عند إعادة طبعها، غير أنه أضاف إلى هذا: إن هناك كتابا واحدا أريد أن أغير فيه بعض الآراء، وهو مستقبل الثقافة فى مصر، فقد انتشر التعليم وأصبح مجانا فى جميع مراحله، كما قويت الصلات العلمية والأدبية بين البلاد العربية برغم الخلافات السياسية بين بعض حكامها.

ولكن العميد لم يحدثنى عما يجب أن يغيره من آراء وردت فى ذلك الكتاب، وأغلب الظن أنه عدل عما ذهب إليه من أن مصر تنتمى

إلى الدول الأوربية التى تطل على البحر المتوسط أكثر من انتمائها إلى الدول الإفريقية والآسيوية، وأن العقلية المصرية تأثرت قديما وحديثا بالثقافة الغربية أكثر من تأثرها بالثقافة الإسلامية، وذلك لأنه أومأ إلى مجانية التعليم، وإلى قوة الصلات العلمية والأدبية بين البلاد العربية، فمصر - من ثم - جزء من هذه البلاد تؤثر فيها وتتأثر بها، وهذا يعنى أنها تنتمى إلى العالم العربى، وأنها إذا كانت قد أخذت فى الماضي والحاضر من الثقافة الغربية، فإن هذا لا يدل على أنها ثقافيا دولة أوربية، فالاحتكاك بين الحضارات والثقافات لا يلغى الشخصية الذاتية للأمم والشعوب.

ويبدو أن طه حسين كان وهو يؤلف كتابه مستقبل الثقافة متأثرا بالواقع الذى كان يعيش فى ظله العالم العربى، واقع التخلف والضعف والاحتلال والاستقلال، وكانت أوربا لديه هى النمونج الذى يجب أن يحتذى، فهى تمثل القوة الحربية والعلمية، وقد أتاح لها هذا أن تسيطر على البلاد العربية، وتفرض عليها قوانينها وثقافتها، ولا سبيل للخلاص من احتلال أوربا لنا إلا بالأخذ بوسائل القوة التى أخذت بها؛ حتى نكون لها أندادا فى كل المجالات، وبذلك نستطيع أن نقهرها ونحيا فى بلادنا أحرارا كراما.

وسواء أكان هذا التعليل صحيحا أم غير صحيح، فإن ما ذهب إليه طه حسين فى كتابيه فى الشعر الجاهلى، ومستقبل الثقافة، لون من الاجتهاد بالرأى، وكل إنسان يخطئ ويصيب، ويؤخذ من قوله ويرد

عليه، فلا ينبغى أن يتحول الخطأ إلى خطيئة، ولا ينبغى حين يخطئ إنسان أن نسرف فى التعليل والتحليل والاستنتاج، وألا نقضى بحكم يفتقر إلى الأدلة الصريحة التى لا تحتمل خلافا، فالذين اتهموا طه حسين بأنه بما كتب فى الشعر الجاهلى قد ردد ما قاله «مرجليوث» وحاول الطعن فى صدق ما أخبر به القرآن الكريم قد أسرفوا على أنفسهم، ودفعهم الحماس العاطفى إلى مجافاة أصول البحث العلمى. وكذلك الذين حملوا على العميد بسبب كتاب مستقبل الثقافة، وقالوا بأنه يريد من وراء هذا الكتاب التمكين للثقافة الأجنبية، وطمس معالم الشخصية الذاتية للشعب المصرى، قد تجاوزوا حدود الموضوعية فى الجدل والحوار، وأخذوا يتلمسون كل ما يطعن فى وطنية العميد أو عقيدته، وهم بذلك يسيئون أكثر مما يحسنون، ولا يخدمون بما يقولون دينهم وأمتهم، وإن ظنوا غير ذلك.

وقد كتب الأستاذ أنور الجندى فى مجلة الهلال عدد أكتوبر سنة ١٩٩٠م تعليقا على ما كتب حول آراء طه حسين فى الشعر الجاهلى تحت عنوان «حول آراء الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى ومستقبل الثقافة».

* * *

حول آراء الدكتور طه حسين
فى الشعر الجاهلى ومستقبل الثقافة

بقلم: أ. أنور الجندى

عندما يدافع الدكتور محمد الدسوقى عن طه حسين يثير علامة استفهام كبيرة تحمل ابتسامة سخرية عريضة.

فما هى أرضية الدكتور محمد الدسوقى الذى التقى بطه حسين فى العامين الأخيرين من حياته التى امتدت ثمانين عاما وقد التقى به وهو فى حالة المرض الذى كان قد ألم به خلال سنواته العشر الأخيرة والتى وصفته الدكتورة سهير القلماوى فى كتابات لها بأنه كان مؤثرا شديد التأثير على ذاكرة العميد إلى الحد الذى ينسى معه أشياء كثيرة.

فهل يمكن أن يقال إن الدكتور محمد الدسوقى قد استطاع من خلال هذين العامين أن يستعرض مع طه حسين أعماله خلال أكثر من خمسين عاما أو أن يكتشف خلفيات هذه الأعمال وهو الذى كان عمله قاصرا على أن يقرأ له الصحف أو بعض الرسائل خلال بضع ساعات كل يوم، فى هذا السن المتقدم والمرض العضال بعد أن تركه فريد شحاته، ومن هنا كان كل ما يكتبه الدكتور محمد الدسوقى عن مراجعته مع طه حسين بشأن كتابيه الشعر الجاهلى ومستقبل الثقافة يفتقد كثيرا من الأصالة

مع رجل ظل حتى أخر أيام حياته يفخر بأنه لم يرجع عن رأى رآه أو مقولة ذهب إليها وهو ادعاء باطل، فإن أخطر مقولات طه حسين التى كان يفاخر بها وهى مصر الفرعونية اضطر أن يبتلعها ويجارى الجو بعد حركة الجيش عندما رأى الجماعة يتحدثون عن القومية العربية.

وقـد فعل ذلك دون أن يعتذر عن ماضيه الطويل فى دعوته بإصراره علـى فرعونيتها وفـى مقولتـه أن العـرب كانوا من قـوى الاحتلال كالفرنسـيين والإنجليـز ومن أجله حرقت كتبه فى دمشـق، فلقد كان طه حسـين دائما صوته سـيده لا يبالى أن ينقلب من رأى إلى رأى ومن وجهـة إلى وجهـة أخرى، وأية ذلـك أنه بعد أن حارب الوفد وسـعد زغلول سـنوات طوالا عاد فانضم إلى الوفد وأخذ يحارب أصدقاء الأمس من الأحرار الدستوريين.

أما مقولة الدكتور محمد الدسوقى بأن كتاب «الشعر الجاهلى» لم يكن يحمل إلا فكرة «انتحال الشعر» فهو قول ظالم، إذ لو كانت مقولة انتحال الشعر وحدها هى هدف هذا الكتاب ما قامت عليه قيامة الأزهر والعلماء.

ولكن الشعر الجاهلى كان يحمل فكرة خبيثة فى أطوائه تنكر نصوصا ثابتة فى القرآن الكريم وتصف الرسول ﷺ بما لا يليق به وتضع لليهود مكانة لم يبلغوها أبدا وليس فى التاريخ الصحيح ما يثبتها، وتنكر هجرة إبراهيم إلى الجزيرة العربية.

ولقد اضطر طه حسين إلى استبدال كتاب الشعر الجاهلى بكتاب جديد فى الأدب الجاهلى ليتخلص من بعض خطاياه وإن بقى مصرا على

انتحال الشعر وهى قضية تحاول أن تصيب القرآن وتفسيره، وضعها عتاة المستشرقين ليهدموا قاعدة هامة من قواعد فهم القرآن وهى العودة إلى الشعر بوصفه ديوان العرب.

وإذا كان الدسوقى يرى أن طه حسين لم يغير رأيه بالنسبة للشعر الجاهلى وهو قليل الدراية بتراث طه حسين فإن رجلا رافق هذه الرحلة طويلا هو الأستاذ محمود شاكر يكذب مقولة الدسوقى ويؤكد أن طه حسين حاول التراجع عن هذا الرأى - على طريقة أساتذة ذلك العهد - دون الاعتراف بالخطأ أو الرجوع عنه ولكن بكتابة شيء آخر مخالف عندما كتب عن أعلام الشعر الجاهلى، وعلى كل حال فإن إصرار طه حسين أو الدكتور الدسوقى على أن طه حسين لم يغير رأيه بالرغم من سماعه وجهة نظر أصح ليس أمرا مشرفا للعالم أو الباحث وليس من طباع المسلم الصحيح الذى يدعوه دينه أن يعود إلى الحق متى تبين له.

ولقد كان طه حسين يقول لكل من يراجعه فى أمر كتب عنه أو قضية أثارها، أنه سوف يصحح هذا الرأى.

وكان يقول (اكتم عنى) ولكنه لم يكن يغير شيئا بل هى محاولة للخروج من المأزق وقد فعل ذلك مع الدكتور الحوفى ومع السفير أحمد رمزى سفير مصر فى سوريا عندما حدثه عن إحدى مقولاته الخاطئة.

أما كتاب (مستقبل الثقافة) فإنه كان فى حقيقة أمره «تقريرا سياسيا» مرفوعا إلى رئيس الحكومة يحاول أن يحمى الإرساليات

الأجنبية فى مصر بعد سقوط الامتيازات وعقد معاهدة ١٩٣٦م حيث كان الأجانب يخشون السيطرة على مدارسهم ومعاهدهم، وقد اختير طه حسين ليقدم هذا المنهج ليكون منطلقا لسياسة التعليم فى مصر، غير أن الدكتور طه عندما أعد تقريره هذا استقالت وزارة النحاس باشا واضطر إلى أن يصدره على هيئة كتاب لإرضاء الذين كلفوه به فهو فى حقيقته لم يكن عملا مستقلا ولم تكن دعوته إلى التعليم كالماء والهواء إلا شعارا أرادت به الوزارة التى تولاها أن تكسب به الشعب، وقد ثبت فساد التجربة بعد تطبيقها وكتب فى ذلك أقرب الناس إلى الدكتور طه وهو تلميذه الدكتور نجيب البهيتى وتشهد صحف ذلك العهد بذلك.

وعندما يقول الدكتور الدسوقى إن طه حسين اجتهد بالرأى وكل إنسان يخطئ ويصيب يعترف بخطأ طه حسين ولكنه ينكر الخلفية الخطيرة التى كانت وراء الحملة على الدين والقرآن والرسول والتاريخ والتى أدخلت بمكر شديد فى قضية انتحال الشعر ليقدم مقولة تنكر على إبراهيم وإسماعيل رحلتهما إلى مكة وبناءهما الكعبة ومعروف تلك الجهات التى انتفعت بذلك وهى التى حمت طه حسين من المحاكمة.

وما كان من الصحيح على الإطلاق، أن مصر غريبة الفكر تستمد قيمتها من اللاتينية - نظرية البحر المتوسط - ولها جزء من الغرب وعقل الغرب. بينما عرفت مصر الإسلام منذ أربعة عشر قرنا فكونها تكوينا جديدا وصهرها فى بوتقة التوحيد الخالص وأقام لها منهجا اجتماعيا وثقافيا وسياسيا مختلفا تمام الاختلاف عن الغرب وفكره

الإغريقي والوثني وعاشت وجهتها إلى الكعبة المشرفة ولا تزال وستظل، ولاريب أن محاولة فصلها عن المشرق الإسلامي وعن الإسلام لحساب دعوى الدول اللاتينية التي كانت منارة في ذلك الوقت باطلة. فقد كانت لحساب فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وفي محاولة لضم شاطئ البحر الأبيض الجنوبي المسلم (المغرب والجزائر وتونس ومصر) إلى هذا الحلف الذي لم يثبت أمام الأحداث إلا قليلا والذي كان هدفه إدخال مصر والمغرب فيما يسمى أوربا الجنوبية على النحو الذي فرضته فرنسا على الجزائر يوما ما، ولذلك فإن الكشف عن خلفيات الدكتور طه حسين هو في الحقيقة الهدف الحقيقي لفهم كتاباته ووجهته، التي سرعان ما يغيرها ويستبدلها بغيرها عندما يجدها تنهار.. وقد انهارت مختلف دعواته ومقولاته ولم تستطع واحدة منها أن تثبت على الأيام لأنها كانت في مجموعها معارضة لسنن المجتمعات والحضارات، مخالفة للفطرة والأصالة ومنهج العلم والتاريخ «والله يقول الحق وهو يهدى السبيل».

وقد كتبت الكلمة التالية على هذا الرد ونشرت في مجلة الهلال: عدد ديسمبر سنة ١٩٩٠م بعنوان: لغة الحوار بين الموضوعية والسخرية.

* * *

«لغة الحوار»
بين الموضوعية والسخرية

من بدهيات المنهج العلمى فى البحث والجدل أن يتخذ الحوار بين المختلفين فى الرأى صبغة الموضوعية والأمانة العلمية، وأن ينأى ما استطاع إلى ذلك سبيلا عن لغة السخرية وعبارات التهكم والتنقص والرمى بقلة الدراية والمعرفة، حتى يمكن أن يؤدى مهمته فى تمحيص الحقائق والوصول إلى نتيجة لا يملك الجميع إلا الأخذ بها والنزول عندها.

ولكن الأستاذ أنور الجندى فيما كتبه فى عدد أكتوبر من الهلال على ما نشرته لى هذه المجلة فى سبتمبر حول آراء طه حسين فى الشعر الجاهلى ومستقبل الثقافة تجاهل هذه البدهيات وراح فى حماس عاطفى ساخر يتهمنى بضحالة الفكر، وقلة الدراية والادعاء الكاذب، أذكر القارئ قلة الدراية والادعاء الكاذب، وأذكر القارئ ببعض ما قاله الأستاذ الجندى حتى يطمئن إلى أنى لم أتقول عليه أو أنسب له ما لم يصدر منه.

استهل الأستاذ كلمته بقوله: عندما يدافع الدكتور محمد الدسوقى عن طه حسين يثير علامة استفهام كبيرة تحمل ابتسامة سخرية

عريضة. ثم يتساءل: ما هى أرضية الدكتور الدسوقى الذى التقى بطه حسين فى العامين الأخيرين من حياته التى امتدت ثمانين عاما؟. هل يمكن أن يقال إن الدكتور محمد الدسوقى قد استطاع فى خلال هذين العامين أن يستعرض مع طه حسين أعماله خلال أكثر من خمسين عاما، أو أن يكتشف خلفيات هذه الأعمال، وهو الذى كان عمله مقصورا على أن يقرأ له الصحف أو بعض الرسائل خلال بضع ساعات كل يوم؟.. ومن هنا كان كل ما يكتبه الدكتور الدسوقى عن مراجعاته مع طه حسين بشأن كتابيه الشعر الجاهلى، ومستقبل الثقافة يفتقد كثيرا من الأصالة.

ويقول أيضا: وإذا كان الدسوقى يرى أن طه حسين لم يغير رأيه بالنسبة للشعر الجاهلى وهو قليل الدراية بتراث طه حسين فإن رجلا رافق هذه الرحلة طويلا هو الأستاذ محمود محمد شاكر يكذب مقولة الدسوقى..

هذه العبارات التى لا ينبغى أن يعرفها جدل علمى مهما تتباين الآراء لجأ إليها الأستاذ الجندى. ولا تكاد تخلو فقرة من كلمة هذا الأستاذ من أمثال تلك العبارات نصا أو مضمونا، وهو أسلوب فى الجدل ينكره الدين قبل أن ينكره المنهج العلمى.

وأبدأ مناقشتى للأستاذ الجندى بتصحيح خطأ وقع فيه، ولعله كان من وراء حماسه فى انتقاء عبارات التنقص والسخرية، وإصدار الأحكام دون بينة أو برهان، لقد ذكر أنى التقيت بالعميد فى العامين الأخيرين من حياته فقط، وأن عملى معه كان مقصورا على قراءة الصحف وبعض الرسائل!

وما ذكره الأستاذ الجندى غير صحيح، وذلك أن صلتى بالعميد بدأت منذ عام ١٩٦٤م، أى قبل وفاته بنحو عشر سنوات. فإذا كان لا يعلم هذا. فكيف ذهب إلى ما ذهب إليه؟ وهو يقرأ قول الحق فى كتابه الكريم: ولا تقف ما ليس لك به علم»؟

أما إذا كان يعلم وحاول أن يوهم القارئ بأن صلتى بالعميد لم تكن لتتيح لى أن أعرف شيئا ذا بال عنه، وعن مؤلفاته فلهذا دلالة أخطر من دلالة عدم العلم، والأستاذ الجندى أكبر من أن يفعل هذا، فجهاده المبرور فى سبيل دينه يربأ به عن القول بغير ما يعلم، و يظل موقفه من تحديد الفترة الزمنية التى عرفت فيها العميد معرفة لقاء يثير أكثر من سؤال، من أين له هذا التحديد؟ وهل لم يقرأ ما نشرته سنة ١٩٦٥م، فى مجلة الرسالة، وما نشرته بعد ذلك فى مجلة العربى والدوحة، وفى كتابى: أيام مع طه حسين، وطه حسين يتحدث عن أعلام عصره..؟!

وإذا كان تحديد الفترة الزمنية يثير أكثر من سؤال فإن القول بإن عملى مع العميد كان مقصورا على قراءة الصحف والرسائل قول غريب لا صحة له ولا دليل عليه، فكيف عرف الأستاذ الجندى أن عملى كما ذكر؟ لقد كنت أقرأ للعميد ما يريد دون أن يكون معنا أحد حتى أقرب الناس إليه، وكان إذا زاره زائر توقفنا عن القراءة حتى يخرج، وأذكر بهذه المناسبة أن أستاذى الدكتور إبراهيم مدكور عتب على فى رسالة بعد أن قرأ كتابى: طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، وكان مما جاء فى هذه الرسالة: كيف تنشر حديثا جرى بين اثنين الله ثالثهما؟

لا أدرى كيف أباح الأستاذ الجندى لنفسه فى كلمة منشورة أن يقول ما لا يملك برهانا عليه، وما الذى يمكن أن يفسر به هذا التصرف من مفكر مسلم يقدر أمانة الكلمة، ومسئولية البينة على كل من يدعى دعوى؟!

ويقتضى بيان خطأ الأستاذ الجندى فيما قرره أن أشير إلى أنى كنت أذهب إلى العميد فى كل يوم، أذهب إليه مرتين: مرة فى الصباح، وأخرى فى المساء، وكنت أذهب فى الصباح فى نحو العاشرة والنصف، وأمكث إلى الواحدة والنصف، وفى هذه الفترة نقرأ الصحف والمجلات، وكانت الفترة المسائية وتبدأ فى السادسة وتمتد إلى الثامنة والنصف مخصصة لقراءة الكتب القديمة والحديثة، وقد قرأت مع العميد عشرات المؤلفات، وأملى على عدة مقالات كان ينشرها فى صحيفة أخبار اليوم، وبعض ما قرأته مع العميد من كتب يتألف من أكثر من جزء، كمهذب الأغانى، وعيون الأخبار والحيوان والكامل، وهذا الكتاب قرأته معه أكثر من مرة، والنبوغ المغربى فى الأدب العربى، وسوى ذلك من المؤلفات الأدبية والتاريخية التى لا مجال لذكرها.

بعد هذا التصحيح للخطأ الذى وقع فيه الأستاذ الجندى، والذى تنهار به كل ما رتبه عليه من أحكام، فالمقدمات الفاسدة لا تثمر غير النتائج الفاسدة - بعد هذا أناقشه فيما اشتمل عليه رده من آراء.

إن كلمتى التى رد عليها الأستاذ أنور تتألف من شقين: الشق الأول روايات نقلتها عن العميد، والشق الثانى تعليقات على ما رويت

وخلاصة ما رويته أن العميد ظل على موقفه من الشعر الجاهلى، وهو الحكم على هذا الشعر بأنه منحول، وأنه تمنى أن يعيد النظر فيما كتبه في مستقبل الثقافة في مصر.

وكان مما علقت به أن العميد يخطئ ويصيب كغيره من البشر، ولكن المأساة أن يتحول الخطأ إلى خطيئة، وأن ندعى معرفة ما في الصدور فنحكم على الناس بالإلحاد أو المروق من الدين، أو التبعية الفكرية للآخرين.

ولكن الأستاذ الجندى لا يروقه ذلك ويتهمنى بأنى أدافع عن طه حسين، ويسخر من هذا الدفاع: لأنه لا يقوم على أساس من الدراية الكافية، كما يتهمنى بأنى مع اعترافى بخطأ العميد أنكر الخلفية الفكرية الخطيرة لأفكاره.

إن الإصرار على أن من وراء ما كتبه طه حسين فى الشعر الجاهلى ومستقبل الثقافة خلفيات وجهات أعدته للقيام بمهمة التشكيك فى المقدسات الإسلامية خطأ يستمسك به الأستاذ الجندى، وهو يزرى بما يقدمه من آراء وأفكار، ولو سلك طريق الدكتور الغمراوى - رحمه الله - فى كتاب النقد التحليلى لكان أهدى سبيلا وأقوم قيلا. فالدكتور الغمراوى ناقش العميد فى دقة وحلل آراءه فى موضوعية، وبين ماله وما عليه فى قصد واعتدال، ومن ثم تبقى مثل هذه الدراسات الجادة، والتى يحفظ لها التاريخ قيمتها العلمية.

إن الأستاذ الجندى أخذ بعد وفاة العميد يكتب عنه كتابة لا تخرج فى مجملها عن أنه عدو للإسلام وحضارته، وأنه لايختلف عن

المبشـرين والمستشـرقين في موقفهم من هذا الدين، وأنه إلى هذا خبيث منافق مراوغ، وذلك فى أسلوب انفعالى خطابى يقرر الأحكام فى تعميم دون الكتابـة قد يهمش لـه العامة. بيد أنه لا يغنـى فتيلا فى ميزان الفكر الصحيح، ولا يجدى شيئا فى مجال النقد العلمي السليم، وسأذكر مثلا واحدا مما جاء في رد الأستاذ الجندى يثبت ما أشرت إليه من أنه يقرر الأحكام دون تحقيق أو توثيق.

لقد ذكر كشاهد على نفاق العميد ومرواغته أنه بعد أن حارب الوفد وسعد زغلول سنوات طوالا عاد فانضم إلى الوفد وأخذ يحارب أصدقاء الأمس من الأحرار الدستوريين.

والحقيقة التاريخية أن العميد تعرض فى عهد صدقي سنة ١٩٣٢م لأزمة اقتصادية شديدة، بسبب موقفه من الحكومة، وعدم الاستجابة لها فى منح بعض الساسة درجة الدكتوراه الفخرية، ولذا أحاله صدقى على المعاش دون أن يكون له معاش، فى هذه الظروف جاءه مصطفى النحاس، ومكرم عبيد، وعرضا عليه رئاسة تحرير «كوكب الشرق» وهى جريدة وفدية وكان راتبه منها مائة جنيه، يقول العميد: ومع هذا لم نوافق إلا بعد أن عرضت الأمر على الأحرار، ونظرا لأن الأحرار والوفديين كانوا متآلفين ضد صدقى وافقوا على أن أتولى رئاسة تحرير تلك الجريدة، واستطرد العميد: وكان عملى فى «كوكب الشرق» بداية العلاقة بينى وبين مصطفى النحاس، وازدادت هذه العلاقة وثاقة بمرور الأيام، وكنت أزوره كثيرا فى منزله، وكان الرجل يستنصحنى

في بعض الأمور وكان يأخذ بما أشير عليه، كما كان ينزل عند رأيى إذا اختلفنا.

فطه حسين لم يترك حزب الأحـرار مراوغة ونفاقا كما يزعم الجندى، وإنما كان العمل فى «كوكب الشرق» بداية العلاقة بالوفد، ثم قويت الصلة بين العميد ورئيس الحزب شيئا فشيئا، حتى أصبح علما مرموقا، من أعلام حزب الوفد، ووزيرا فى آخر وزارة رأسها مصطفى النحاس.

وبعد: فإنى بما نشرت فى الهلال لم أكن أدافع عن طه حسين، لأنه ليس فى حاجة إلى دفاعى، فتاريخ الرجل العلمى يدافع عنه، ولو كان الأستاذ الجندى قد قرأ ما كتبته عن العميد لأدرك أنى رويت عنه ما يسيىء إليه، وقد علقت على ما رويت ببيان وجه الحق فيه، غير أنى حرصت أبلغ الحرص على أن أروى كل ما سمعت بدقة، خدمة للتاريخ الأدبى والسياسى المعاصر، ثم إن كلمتى كما أومأت آنفا روايات نقلتها ووجهة نظر أبديتها، فإذا كان الأستاذ أنور لا يصدق بما أنقل ولا يوافق على ما أرى فهذا شأنه، ولكنه لا يعطيه الحق فى أن يسخر من غيره، وأن يتهمهم بقلة الدراية والكذب، وقد كنت أستطيع أن أفعل كما فعل، ولكن هذا واد لا أباريه فيه، وما كنت أحب له أن يسلكه، وصدق الله العظيم إذ يقول: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى» والحق أحق أن يتبع!

* * *

هل كنت من أنصار طه حسين؟

بقلم: د. أنور الجندى

ظلمنى

الأخ صاحب مقال طه حسين وأنور الجندى فى عدد يوليو الماضى، من مجلة الهلال، وإقرارا للحقيقة أرى أن أوضح أمرين يأخذهما النقاد.. على كاتب السطور فى شأن دراسته عن طه حسين، أما أولاهما التقصير فى الكشف عن جوانب النقص فى أعماله إبان حياته، ومحاولة تقديم نصوص مما كتبه الكاتب إبان هذه الفترة تؤكد هذا الاتهام.

أما الثانية، فهى: التحول بعد وفاته إلى الكتابة عنه على هذا النحو الكاشف لبعض المآخذ فى مفاهيمه أو آرائه دون إبراز ذلك فى حياته.

وليس فى هذا كله من بأس؛ فقد عاش الدكتور طه حسين السنوات العشر الأخيرة من حياته فى حالة مرض متصل، وعجز عن مواصلة البحث، ومتابعة ما يكتب، فضلا عن أن المسئولية الأدبية تقتضى إيقاف عمليات النقد والهجوم تماما؛ تقديرا للظرف الصحى الذى يمر به الكاتب الكبير، فلم يكن مقبولا أن تثار هذه القضايا فى هذه الفترة من حياة الكاتب، فضلا عن أن المسألة لم تكن يسيرة إزاء عدد

ضخم من تلاميذ العميد المنبثين فى كل مكان فى الجامعة والمجمع اللغوى وإدارة الثقافة بالجامعة العربية وبالصحف، وقد وضح ذلك حين كتب طه حسين مقاله (الخطوة الثانية) يدعو إلى تحويل الأزهر إلى كلية لاهوتية، وقد واجهت كلمته معارضة شديدة من كبار العلماء، واضطرت جريدة الجمهورية أن ترجئ نشر كلمات المعارضة تقديرا لظرف الكاتب الكبير، هذا فضلا عن أن من يقرأ الكلمة التى نشرها الهلال لى فى العدد الخاص بطه حسين يستطيع أن يكشف أصول المسائل المختلف عليها واضحة، وقد تناولها القلم فى رفق شديد، ولكنه سجلها لتكون منطلقا لعرضها فى الوقت المناسب بعد ذلك، هذا فضلا عن أن جوانب كثيرة من حياة طه حسين لم تكتشف تماما إلا بعد وفاته.

أما وقد أسلم الدكتور طه حسين الروح، فقد أصبح إذن من حق التاريخ ولم يعد هناك حرج فى كشف وجهة النظر إزاء هذه القضايا، وإن كانت جميع الموضوعات التى تناولها كاتب السطور مدعومة دوما بالأسانيد والوثائق بعيدة عن الإثارة أو الظلم، وفق منهج الإسلام فى تقدير الأمور.

أما ما نشرناه عن حياة طه حسين من قبل، فإن كل ما ورد فيه لا يغير شيئا من الحقائق التى تكشفت فيما بعد ولا يعارضها، والتى كانت خافية فى مرحلة من المراحل سواء أكان ذلك بحكم نفوذه الأدبى أم بحكم عدم تكامل وثائق البحث فى اتجاهاته المختلفة.

فضلا عن أنه ليس عيبا أن يعود الكاتب إلى الحق متى تبين له، بل ذلك من الأصول الأصيلة فى مفهوم الإسلام للبحث والمناقشة،

ولا تزال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تدوى فى كل مكان حين قال لقاضيه:

(لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس هديت فيه لرشدك أن تقول فيه بالحق؛ فإن الحق قديم، وإن العودة إلى الحق خير من التمادى فى الباطل).

ولقد تحول طه حسين فى حياته الأدبية بالنسبة لكثير من القضايا والأشخاص، ولقد سجلنا هذا فى حياة طه حسين نفسه دون حرج أو ملام، ومن يطالع كتابنا (الصحافة السياسية فى مصر) يجد هذه الحقيقة واضحة تماما ليس بالنسبة لطه حسين فحسب، وإنما بالنسبة للعقاد وتوفيق دياب وغيرهم تحت عنوان باب كامل (تناقض الكتاب) وقد كتب فى حياتهم جميعا، وكشفنا فيه كيف تحول طه حسين من الأحرار الدستوريين إلى الوفد، وكيف تحول العقاد من الوفد إلى خصوم الوفد، وأنقل من صفحة ٥٤٩:

«وكان طه حسين قد أبدى رأيه فى العقاد والوفد سنة ١٩٢٤م فى جريدة السياسة، فقال: (أنا أمقت المذهب السياسى للأستاذ العقاد مقتا شديدا وأزدريه ازدراء لا حد له، ولا أقرأ للأستاذ العقاد فصلا من الفصول السياسية فى البلاغ، ولولا أن هذه الفصول جمعت فى كتاب، وانفصلت عن السخف السياسى المنكر الذى ينشره فى هذه الصحيفة لما قرأتها، ولا نظرت فيها (يقصد كتاب: مطالعات فى الأدب والحياة للعقاد)، ثم عاد طه حسين سنة ١٩٢٣م فكتب فى اسما ولا لفظا وإنما

الوفد قوة حقيقة قائمة يستطيع كل إنسان أن ينظر إليها وأن يمتحنها، هذه القوة لا تقوم على الخيال ولا تعتمد على الوهم: هذه القوة مكونة من هذه الملايين التي تؤلف الكثرة العظمى لهذا الشعب الكريم).

وكان طه حسين إبان أن كان حرا دستوريا يقول عن سعد زغلول: (كل شيء في حياة سعد باشا العملية والكلامية منذ سنين يدل على أن معاليه يمتاز بالتناقض العنيف الصريح فيما يقول وفيما يعمل، أقوال متناقضة يهدم بعضها بعضا، وبين أعماله وأقواله تناقض ليس إلى فهمه من سبيل، والدستور ينكره معالي سعد باشا، ويراه مضيعا لسلطة الأمة وحقوق الأمة... إلخ.

ويقول: مساكين: سعد وأصحاب سعد، مساكين لأنهم يدورون في دائرة عرفها الناس، وأصبحوا لا يخفى عليهم من أمرها شيء... إلخ.

ويقول: يجب أن يكون سعد قد انتهى من النصف السياسي إلى حد لم يعهده من قبل... إلخ.

ويقول: الزعيم يلعب، نعم يلعب بالأمة وعقائدها، ويلعب بأنصاره وسامعيه.

ويقول: ليس سعد رجل ثورة، وليس هو رجل حدث، وإنما هو ثرثار سريع الحركة مشعوذ يقوى إن ضعف خصمه، ويذوب إن قوى خصمه... إلخ.

ثم لا يلبث طه أن ينضم إلى الوفد عام ١٩٢٣م، ويكتب عن سعد مرة أخرى تحت عنوان (عظيم) رحم الله سعدا: لقد أيقظ مصر ثم عاهدها

على أن سيحول بينها وبين النوم عن الحق، ولقد وفى لها بعهده حيا، وهو يوفى لها بعهده ميتا، ولقد جعل نفسه وجعل أمته غصة للمستعمرين إلى أن يعترفوا بالحق لأصحاب الحق ويوافقوا بالاستقلال لهؤلاء الذين أقسموا وبروا أن لن يرضوا إلا بالاستقلال (كوكب الشرق ٢٤ أغسطس ١٩٣٣) الصحافة السياسية ص٥٤٦.

وبعد هذا هل لا يزال البعض يتهمنا بأننا لم نكتب عن طه حسين وعن تناقضاته وهو حي:

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلقد تراجع طه حسين عن كثير من آرائه، ولم يرى فى ذلك بأسا، وأخطر ما تراجع عنه رأيه فى مصر الفرعونية الذى كان يقول به ويصر عليه قبل حركة الجيش ١٩٥٢م، فلما تحدثوا عن القومية العربية كان فى مقدمة من تحدث عنها، ونسى ماضيه كله.

ولم ير الناس عيبا فى تحوله من الأحرار إلى الوفد، ومن نقد سعد زغلول إلى تقديس سعد زغلول، ومن الفرعونية إلى العروبة، ألا يرى الناقدون أن من حقنا أن نغير رأينا إذا كان ذلك على طريق الحق، وفى سبيل الحق، ومتى انكشف لنا من أمر اسم لامع خادع ما انكشف.

نحن لم نغير رأينا فى سبيل مطمع أو هدف أو مغنم مادى، ولكن فى سبيل أن نقدم لشبابنا حقيقة الأمر فى قضايا كثيرة شائكة حاول طه حسين أن يقدم فيها رأى الاستشراق والتغريب والشعوبية.

ولو أن بعض النقاد رجعوا إلى كتاب (الصحافة السياسية) الصادر عام ١٩٦٢م لوجدوا نقدا صريحا لطه حسين كتب فى حياته قوامه:

١ – إعلاء شأن الملك فؤاد والملك فاروق على سعد وأصحاب سعد.
٢ – هجومه على أحمد شوقى أمير الشعراء.
٣ – هجومه على الإسلام فى ظل الوفد، وخاصة هجومه على النص بأن دين الدولة الإسلامية الذى ورد فى الدستور.
٤–موقفه من الحملة التبشيرية على مصر واستهانته بها... إلخ.

هذا وبالله التوفيق،،

* * *

رد على مقال للأستاذ أنور الجندى فى الهلال عدد سبتمبر ١٩٩١م

كتب الأستاذ أنور الجندى وحاول أن يقدم مسوغات لموقفه المتناقض من عميد الأدب العربى فى حياته وبعد مماته، ومما ذكره فى هذه الكلمة أنه آثر فى حياة العميد ألا يكتب عنه كما كتب بعد وفاته؛ لأن العميد فى العقد الأخير من عمره كان فى حالة مرض متصل، وعجز عن مواصلة البحث، ومتابعة ما يكتب، فضلا عن أن المسئولية الأدبية تقتضى إيقاف عمليات النقد والهجوم تماما؛ تقديرا للظرف الصحى الذى يمر به الكاتب الكبير، ثم قال: فضلا عن أن المسألة لم تكن يسيرة إزاء عدد ضخم من تلاميذ العميد المنبثين فى كل مكان فى الجامعة والمجمع اللغوى وإدارة الثقافة والجامعة العربية وبالصحف، وقد وضح ذلك حين كتب طه حسين مقالته «الخطوة الثانية» يدعو إلى تحويل الأزهر إلى كلية لاهوتية، وقد واجهت كلمته معارضة شديدة من كبار العلماء، واضطرت جريدة الجمهورية أن ترجئ نشر كلمات المعارضة؛ تقديرا لظرف الكاتب الكبير..

وسوغ الأستاذ الجندى موقفه أيضا بأن جوانب كثيرة من حياة طه حسين لم تكتشف تماما إلا بعد وفاته، وأنه ليس عيبا أن يعود الكاتب

إلى الحق متى تبين له. بل إن ذلك من الأصول الأصيلة فى مفهوم الإسلام للبحث والمناقشة، واستطرد الأستاذ الجندى فأطال القول نسبيا فى بيان أن العميد تحول فى حياته بالنسبة لبعض القضايا، وأنه تراجع عن كثير من آرائه، وضرب مثلا على هذا برأيه فى مصر بعد حركة الجيش ١٩٥٢م؛ فقد أخذ يتحدث عن القومية العربية، ونسى ما كان قد ذهب إليه من قبل وهو «مصر الفرعونية».

وما أورده الأستاذ الجندى من مسوغات لموقفه من العميد غير مسلم، وذلك لأن صحة العميد فى السنوات العشرة الأخيرة من حياته لم تكن تمنعه من مواصلة البحث ومتابعة ما يكتب، وقد قرأت له كثيرا من المؤلفات القديمة والحديثة فى هذه السنوات، وكان العميد فيها قد انتخب رئيسا للمجمع اللغوى، وكان يحرص كل الحرص على حضور الجلسات الأسبوعية، ويشارك برأيه فيما يعرض له الأعضاء من قضايا لغوية، أو مصطلحات علمية.

والقول بإن صحيفة الجمهورية لم تفسح صدرها للرد على مقالة «الخطوة الثانية» مراعاة لظروف العميد غير صحيح، فما هى هذه الظروف التى حملت هذه الجريدة على ذلك؟ إنها نشرت ما هو جدير بالنشر، وكان يعالج الموضوع معالجة موضوعية، ولذلك خصصت مجلة الأزهر عددين متتاليين للرد على هذه المقالة وتجاوز بعض ما نشر فى هذه المجلة حدود الجدل العلمي، وعرض لقضايا شخصية وعائلية لا علاقة لها بما نشر فى الجمهورية.

على أن مقالة الخطوة الثانية لم تكن تدعو إلى تحويل الأزهر إلى كلية لاهوتية كما جاء في كلمة الأستاذ الجندى، وإنما كانت تدعو إلى إلغاء ثنائية التعليم، وتوحيده في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وقد حدثني العميد عن هذه المقالة فقال: أذكر أنى كنت في حفل حضره الرئيس جمال، وكنت أجلس بجواره، فقال لى: ما رأيك في الأزهر؟ إن الدول الإسلامية بدأت تنصرف عنه، ولا ترسل أبناءها إليه، فقلت للرئيس: لقد طالبت بتطوير الأزهر ليساير الحياة، فاتهمني بعض المسئولين بخدمة الاستعمار، ومنهم الأستاذ إبراهيم الطحاوى، فقال الرئيس: دعك مما كتب الأستاذ الطحاوى، وأحب أن أعرف رأيك في إصلاح الأزهر، وقال الدكتور طه: وحدثنى الرئيس في إيجاز عن رأيي الذى نشرته في الجمهورية، وصدر بعد ذلك قانون تطوير الأزهر وجعله جامعة، وأنا لا أوافق على أن يكون الأزهر جامعة كغيره من الجامعات، وكان الأولى أن يظل الأزهر يؤدى رسالته في خدمة الفكر الإسلامى واللغة العربية دون أن يهتم بسوى ذلك من العلم.

فطه حسين لم يرد للأزهر أن يكون كلية لاهوتية، وإنما أراد له أن يتطور ويساير الحياة؛ ليؤدى رسالته كما ينبغى أن تكون.

وأما التعليل بكثرة تلامذة العميد المنبثين في كل مكان فهو تعليل غير مقبول، فهؤلاء التلاميذ لم يحولوا بين كثير من شيوخ الأزهر وهجومهم العنيف على العميد بعد مقالة الخطوة الثانية، كما أن هؤلاء التلاميذ لم يفتر حماسهم للدفاع عن أستاذهم بعد وفاته، ثم إن النقد

الموضوعى لا يضيق به كل من يحترم عقله، والإنسان المؤمن بما يقول يجهر بكلمة الحق دون أن يخشى أحدا مهما تكن مكانته أو صولته.

وإذا كانت آراء العميد التى اختلف معه بسببها بعض المفكرين والباحثين قد صدرت فى الثلاثينيات والأربعينيات، ولم يصدر عنه فى العقد الأخير من عمره ما يثير الجدل والخلاف، فلماذا لم يكتب الأستاذ الجندى نقده للعميد قبل هذا العقد، فقد كان العميد يتمتع بصحة تساعده على متابعة ما يكتب عنه ومراجعته؟

وأما أن يتحول الإنسان عن رأى ارتآه فهذا أمر لا خلاف عليه ما دامت هناك حقائق دامغة تدعوا إلى هذا التحول، ولكن الأستاذ الجندى لم يبين لنا ما هى هذه الجوانب الكثيرة التى ظلت مجهولة فى حياة طه حسين ولم تكتشف إلا بعد وفاته، والتى كانت من وراء ذلك النقد أو الهجوم على الأديب العميد؟.

ويؤسفنى أن أشير إلى أن الأستاذ الجندى فى حديثه عن التراجع عن الرأى ضرب مثلا بموقف طه حسين بعد حركة الجيش سنة ١٩٥٢م من الحديث عن القومية العربية، وذكر أن العميد كان فى مقدمة من تحدث عن هذه القومية؛ لأن ضباط الجيش تحدثوا عنها وأشادوا بها ودعوا إليها، وفى هذا رمز للعميد بأنه لم يكن يثبت على رأى، وأنه كان ينافق السلطة ويتزلف إليها، وهذا يعنى أن كل آرائه لا وزن لها ولا ينبغى احترامها!.

وحاصل القول إن ما حاول الأستاذ الجندى أن يبرر به موقفه من العميد بعد وفاته حجة عليه لا له، وإن كل الأدلة التى يتذرع بها متهافتة، وإن الموضوعية النقدية تقتضى أن نقدم للشباب الحقائق مبرأة من التحامل وغمط أقدار الناس.



دور المرأة فى حياة طه حسين

مما لا مراء فيه ولا اختلاف عليه أن طه حسين طاقة فكرية متميزة، وقد تجلت إرهاصات هذه الطاقة منذ التحق عميد الأدب العربى بالأزهر طالبا به، فقد ضاق ذرعا بالمنهج الذى كان الشيوخ يأخذون به فى دروسهم؛ لأنه تقليدى، ينفر من التجديد، ويردد ما قاله الأقدمون دون نقد له أو إضافة إليه، وكانوا إلى هذا يعدون الخروج على منهجهم مروقا من الدين وتطاولا على ما قدمه السلف من الآراء والاجتهادات.

ونمت تلك الطاقة المبدعة بمرور الأيام عن طريق القراءة مع زميليه أحمد حسن الزيات، ومحمود زناتى، ثم الدراسة فى الجامعة الأهلية، والجامعات الفرنسية ليجمع العميد فى ثقافته بين الشرق والغرب، ويكون له بهذا الزاد الفكرى دور فاعل فى النهضة العربية المعاصرة.

والعميد الذى فقد بصره فى طفولته الباكرة عاش فى دائرة ضيقة من حيث علاقاته الاجتماعية، وبخاصة بالنسبة للمرأة، فلم تتجاوز علاقته محيط الأسرة، ومن ثم لم يخفق قلبه بالمشاعر الطبيعية نحو المرأة، فلما أوفدته الجامعة الأهلية لمواصلة دراسته فى فرنسا؛ ولأن الحياة فى الغرب فى القرن الميلادى المنصرم كانت تختلف اختلافا واضحا عن الحياة فى الشرق من حيث مشاركة المرأة فى الحياة العامة،

وتمتعها بحق العلم والعمل، وحضورها فى المجالات العامة، وجد العميد نفسه في بيئة لها أعرافها الاجتماعية التى لم يألفها من قبل، بيد أنه لم يضق بها، أو يذود عنها، بل رأى فيها ما ينبغى أن تحظى به المرأة العربية؛ حتى تسهم بجانب الرجل فى تطوير الأمة ونهضتها لتقوى شوكتها، وتحرر إرادتها من سطوة المحتل، وغطرسة الدخيل، ولا ريب فى أن ما قرأه العميد لقاسم أمين فى تحرير المرأة، والمرأة الجديدة، وما سمعه فى دار الجريدة من أحمد لطفى السيد وغيره، وما وقف عليه من أفكار الإمام محمد عبده، كانت للعميد زادا فكريا اجتماعيا متطورا وجد له تطبيقا عمليا فى فرنسا، فرحب به، وتكيف معه، ومع هذا ظلت عاطفته نحو المرأة فى حالة من السكون، حتى وقع الاختيار على فتاة فرنسية لتكون مساعدة له فى القراءة، والتنقل، وكان لسلوك هذه الفتاة مع العميد ـ وهو سلوك اتسم بالرقة والحنو والاهتمام بأبحاثه ودراساته ـ أثره فى تحريك مشاعره نحو المرأة، وقويت هذه المشاعر شيئا فشيئا حتى دفعت بالعميد إلى أن يصرح لهذه الفتاة بما خفق قلبه به نحوها، ولم يجد منها ما يصدم عاطفته أو يخيب آماله، ولعل عطفها عليه تحول إلى حب له بعد أن عرفته عن كثب، وآنست منه نبوغا وعبقرية تعد بمستقبل مشرق، ومن ثم لم ترفض ما عرضه العميد عليها من رغبته فى البناء بها، وإن كانت قد آثرت أن تستشير بعض أهلها، وهؤلاء أبوا أن تتزوج امرأة فرنسية مسيحية رجلا ضريرا شرقيا مسلما، بيد أنها لم تصغ لما أشاروا به، وتم الزواج الذى سعد به العميد، وكان بداية مرحلة جديدة فى حياته.

صراعات فكرية:

ورجع العميد إلى مصر بعد أن حصل على درجة الدكتوراه ومعه زوجته وابنته، وبدأ حياته الجامعية التى امتدت أكثر من ربع قرن، وشهدت هذه الحياة ما شهدت من صراعات فكرية كان من أهمها قضية انتحال الشعر الجاهلى، ومستقبل الثقافة فى مصر، وليست هذه الكلمة بصدد تفصيل القول فى تلك الصراعات وما تمخض عنها من قضايا ومشكلات، وإنما أومأت إليها للإشارة إلى أن العميد خرج من كل هذه الصراعات مظفرا، وإن أثارت حوله بعض الشبهات التى تجاوزت تأثره بالفكر الاستشراقى إلى النيل من عقيدته ووطنيته، ولا ريب فى أن حياته الأسرية المستقرة وما تبذله زوجته من أجل راحته والوقوف فى شجاعة أمام خصومه أو المتحاملين عليه كان من أهم العوامل التى جعلته يواصل حياته الفكرية دون أن يعبأ بالسهام التى انطلقت فى غير موضوعية نحوه، والتى حاولت أن تقلل من مكانته الفكرية والأدبية، أو تزرى بمؤلفاته وآرائه التجديدية.

ولأنى دخلت بيت العميد فى العقد الأخير من عمره، وأتيح لى أن أطلع على طرف من حياته المنزلية والعائلية، فإنى أقصر الحديث عن زوجة العميد ما لها وما عليها على ما عرفته عنها فى تلك الفترة الزمنية التى كان العميد يعانى فيها من ضعف فى صحته، وعجز عن السير على قدميه بصورة طبيعية، وما أورثه ذلك من اضطراب فى معدته حمله على أن يقلل من طعامه، وكانت زوجته تحاول إكراهه على الأكل حتى

تقوى مناعة الجسم ليقاوم ضعف الشيخوخة، وكان العميد فى بعض الأحيان ينزل عند إرادتها، وأحيانا أخرى لا يستجيب لما ترغب فيه، فكانت لا تملك غير العزوف عن الطعام أو البكاء كما أخبرنى العميد.

وكانت لزوجة العميد فى العقد الأخير من عمره الكلمة الأولى فى البيت حتى فى علاقة العميد ببعض أصدقائه، فقد سألت يوما الأستاذ الزيات عن أسباب فتور علاقة الصداقة بينه وبين العميد، فقال: إن زوجة العميد هى المسئولة عن فتور هذه العلاقة؛ لأننا كنا إذا ذهبنا إليه ليخرج معنا فى نزهة أو الجلوس فى مكان خاص فإن زوجته كانت تزعم أن حرارته غير مستقرة، ولا يستطيع الخروج، وكان العميد لا يعقب على قولها، فكنا بعد ذلك لا نذهب إليه حتى فترت العلاقة، وأصبحنا لا نراه إلا فى المجمع اللغوى.

وكان من مظاهر هيمنة زوجة العميد على البيت أنها كانت ترفض أن يعطى بعض المال لمن يطرق باب «رامتان»، كما كانت تعارض أن يساعد أقرب الناس إليه بالمال، وأذكر أن العميد طلب منى يوما أن أزيد فى الصك الذى أصرفه من البنك مبلغ عشرين جنيها، وأخذ منى هذا المبلغ بعد عودتى من البنك، وتسلمت زوجته النقود التى تعود صرفها كل شهر، ولكنها طلبت منى أن أقرأ لها رقم المبلغ المسجل فى الصك، ولم أجد بدا من أن أقرأ العدد الصحيح، وهنا انفجرت فى عصبية تخاطب العميد، ولم أفهم مما قالت شيئا، وإن كان كل كلامها دار حول الزيادة التى وردت فى الصك وإلى أين تذهب، وظل العميد

صامتا حتى انتهت ثورة الزوجة وخرجت من حجرة المكتب، وأخذنا في قراءة الصحف.

لم تتعلم العربية:

وزوجة العميد التي عاشت في مصر أكثر من نصف قرن، لم تكن تعرف اللغة العربية قراءة وكتابة، وكل ما تعرفه منها بضع كلمات عامية تنطقها في لكنة أعجمية تخاطب بها العاملين في البيت، فلماذا لم تدرس هذه اللغة، وهي تعيش في مجتمع عربي وزوجها كفيف، وقد يحتاج إلى من يقرأ له في أي وقت رسالة أو برقية بالعربية مع أن أولادها تعلموا منذ الصغر العربية في البيت، وكان يمكنها أن تدرس مع أولادها لو رغبت، ولكنها لم تفعل؟ فهل يدل هذا في نظرها على أن العربية لغة ليست جديرة بتعلمها، وإن ما كتب من علم أو أدب لا يستحق أن يقرأ أو إنه التعصب للفرنسية وعدم الاعتراف بلغة سواها؟!.

وكانت صحيفة الأهرام قد نشرت يوم الجمعة الموافق ١٩٨٩/٧/٢٨م، أن زوجة العميد توفيت ليلة الخميس الموافق ١٩٨٩/٧/٢٧م، عن عمر بلغ الرابعة والتسعين، وقالت الصحيفة بعد هذا: وكانت السيدة سوزان قد أعلنت إسلامها بعد زواجها من عميد الأدب العربي، وتركت باريس لتعيش معه في القاهرة.

والصحيح أن السيدة سوزان لم تعلن إسلامها بعد زواجها من العميد، وظلت على عقيدتها المسيحية إلى وفاتها، وكانت تذهب كل

يوم أحد إلى الكنيسة، وما كانت تتخلف عن هذا إلا لضرورة، كما كانت تستقبل في رامتان بعض رجال الدين المسيحي، وكان أصدقاؤها من المصريين والذين كانوا يحافظون على زيارتها مسيحيين، بالإضافة إلى بعض المسلمين الذين غلبت عليهم الثقافة والتقاليد الفرنسية.

وتؤكد اللوحات الزيتية التى كانت تزين جدران رامتان الطابع الفرنسي في الفن، ولم يكن يوجد بين هذه اللوحات ما يعبر عن الطابع الفرعونى أو العربى أو الإسلامي.

تلك بعض الجوانب السلبية فى حياة زوجة العميد، أما الجوانب الإيجابية فيأتي في مقدمتها عناية الزوجة الفائقة بزوجها، واهتمامها بمظهره، ومراعاتها لمشاعره، فقد كانت ترعاه من حيث غذائه فى مواعيد ثابتة، وما كانت تدعه يذهب لقضاء حاجته وحده، خوفا من أن تزل قدمه، وكانت في بعض الأحيان تقف عاجزة عن مساعدته فى ترك فراشه ومرافقته إلى الحمام، فتلجأ إلى بعض الخدم لمعاونتها، وكان من المألوف فى طلب أحد هؤلاء أن يدق الجرس مرة واحدة، فإذا دق مرتين فإن هذا يعنى أن على السكرتير أن يصعد إلى حجرة نوم العميد، وكنت أجلس فى حجرة المكتب، فدق الجرس مرتين فصعدت إلى الطابق الثاني وطرقت باب الحجرة ففتحت لى زوجته ظنا منها أنى أحد الخدم ونسيت أنها دقت الجرس مرتين لا مرة واحدة، ومع هذا أذنت لى بالدخول، ورأيت العميد يجلس فى أرض الحجرة مسندا ظهره إلى السرير، وساعدت الزوجة في حمل العميد إلى فراشه،

وقرأت في وجهها مظاهر الإجهاد، ويبدو أنها حاولت وحدها أن ترفع زوجها فلم تقدر.

تحمل المسئولية كاملة:

ومن شواهد اهتمام السيدة سوزان بزوجها ورعايتها له أنها كانت تحمل معها كل الأدوية التى قد يحتاج إليها العميد سواء فى التجول بالسيارة في بعض المناطق الزراعية بعيدا عن المدينة، أو فى انعقاد جلسات المجمع اللغوى، وكانت تعهد إلىّ بحمل هذه الأدوية فى أثناء الجلسة مع إرشادى إلى كيفية استعمالها عند الضرورة.

ولم يكن حرص زوجة العميد على جمال مظهره أقل من حرصها على رعايته صحيا، فالثياب منتقاة، وهى دائما نظيفة، ويبدو العميد فى ارتدائها أنيقا، لا تقتحمه العيون، بل تهش لرؤيته، وتسعد بلقائه.

وأما عن مراعاة زوجة العميد لمشاعره، فقد قال لى العميد: لقد فشلت فى إقناع زوجتى بشراء جهاز تليفزيون. إن زوجة العميد قامت بمسئوليتها نحو زوجها فى صدق وإخلاص وعطف وإحسان، وقد صور العميد فى آخر الجزء الأول من الأيام ما طرأ على حياته بعد زواجه، فقد قال وهو يخاطب ابنته: فإن سألتنى كيف انتهى إلى حيث هو الآن؟ وكيف أصبح شكله مقبولا لا تقتحمه العين ولا تزدريه؟ وكيف استطاع أن يهيئ لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية؟ وكيف استطاع أن يثير فى نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد

وضغينة، وأن يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع؟ إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال؟ فلست أستطيع أن أجيبك، وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب فسليه ينبئك.

أتعرفينه، انظرى إليه، هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ، ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج، ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار.

لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك فبدله من البؤس نعيما، ومن اليأس أملا، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادة وصفوا.

صحيح أن السيدة سوزان تمتعت بخير زوجها، وهى مع هذا أحسنت إليه وغيرت حياته، وكانت له كما شبهها بالملاك الذى أغدق عليه من الحنان والرعاية ما أغدق، وإن كانت قد عاشت معتصمة بعقيدتها المسيحية فلا تثريب عليها فى هذا؛ لأنه لا إكراه فى الدين، ولكن عزوفها عن تعلم العربية هو الذى يطرح أكثر من سؤال.

وبعد فهذه كلمات مجملة عن زوجة العميد، وأطمع أن أقدم مستقبلا إن شاء الله، دراسة أكثر وفاء بحياة هذه الزوجة ودورها فى حياة عميد الأدب العربى رحمه الله.

* * *

طه حسين فى العقد الأخير من عمره

أتيح لى أن ألقى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين - رحمه الله - في العقد الأخير من عمره، وأن أعمل معه قارئا له نحو تسع سنوات، ومن ثم عرفت عنه ما لم أكن أعرف، وفي هذه الكلمة أسجل بعض ما عرفت تحية وفاء في ذكرى مرور أربعين عامًا على وفاة هذا العبقرى الذى شق طريقه بين الصخور فى عزم لا يعرف الوهن، وإرادة تزيدها الشدائد والمشكلات قوة ومضاء.

وفي أول لقاء مع العميد الراحل كانت تغمرنى هيبة الإجلال له، وأفضيت إليه بما استحوذ على مشاعرى، توطئة للاعتذار عما قد أخطىء فيه وأنا أقرأ له: وقال العميد: لا عليك فالكل يخطىء فى القراءة ثم أخذ يسألنى عن بعض الأمور التى تخصنى، وأمضينا بضع دقائق فى حديث شخصى بدد مخاوفى، ومنحنى الجرأة على سؤال العميد، ومناقشته فى كثير من المسائل والقضايا بعد ذلك.

لقد كان طه حسين إنسانا رقيق الشعور، يتألم أبلغ الألم إذا قرأ خبرا عن حادثة أو كارثة، ويتفوه ببعض العبارات التى تترجم عما يشعر به مثل: أعوذ بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكانت أخبار الحروب والأوبئة والمجاعات تزعجه كل الإزعاج.

وطه حسين الإنسان لم يكن ثريا، وإنما كان مستور الحال على حد قوله. فلم يكن يملك عقارات ثابتة أو منقولة، أو له رصيد ضخم فى

مصرف من المصارف وكان كل دخله يتمثل فى معاشه ومكافأة العضوية فى بعض الهيئات العلمية، ثم ما تدره كتبه عليه من أموال كانت تقريبا نحو ثلاثة آلاف جنيه فى كل عام وكان هذا المبلغ ينفق فى رحلة الصيف.

عطاء ولكن فى حدود

هذا الإنسان المستور الحال كان كريما معطاء يجود بماله على ذوى الفاقة والحاجة وبخاصة أهله ورحمه، كما كانت ترد إليه الرسائل الكثيرة يطلب أصحابها منه أن يمدهم ببعض المال، فكان يبعث إليهم بما يطلبون، وكان يعهد إلىّ أحيانا بإرسال ما يجود به عن طريق البريد، وأذكر مرة أن عاملا بعث إليه يطلب منه أن يعاونه على بناء مسكن جديد يقيم فيه بدلا من الإقامة فى مسكن يكلفه كل شهر إيجارا باهظا، ويضحك العميد بعد أن قرأت له رسالة هذا العامل ويقول: الناس يظنون أنى رجل غنى وهذا غير صحيح فهذا العاملِ لا يعرف حقيقة ما لدى من مال، ولو كان يعرف لما بعث برسالته إلىّ.

وكان العميد إذا كلفنى بشراء بعض الأشياء وبقى معى بضعة قروش فإنه كان يطلب منى أن أدفع بها لأى فقير ألقاه، فما كان من عادته أن يضع فى حافظته نقودا معدنية.

وكان الناس يعرفون فى العميد كرمه وإنسانيته، ولذا كانوا يطرقون بيته فى الصباح أو فى المساء، وما كان يرد إنسانا دون أن يقدم إليه ما

يستطيع، وكان هذا يثير زوجته فى كثير من الأحيان - مع أنه كان يحاول إخفاء ما يجود به عنها - ويجعلها تتهم زوجها بأنه يستجيب لكل طارق، ويسمع لكل شكوى، ويثق سريعا بالناس.

وطه حسين الكاتب المفكر كان يقدر قيمة الوقت كل التقدير، ويحرص عليه أشد الحرص، وقد عرفت أنه فى أيام شبابه وصحته كان يمضي نحو خمس عشرة ساعة في القراءة والكتابة كل يوم، فلما كبرت سنه، وضعفت قوته كان يقرأ كل يوم نحو ثمانى ساعات ولما نصحه الأطباء في السنوات الأخيرة من عمره بالراحة وعدم الإكثار من القراءة لم يستجب لهذا النصح، وكان مما قاله لى: الموت خير لى من الحياة إذا لم أقرأ فلا معنى لحياتي بدون قراءة.

ومن دلائل حرصه على الوقت وشغفه بالقراءة أنه إذا جاءه زائر وأطال الجلوس فإنه كان يضيق بهذا السلوك غاية الضيق، ويقول فور خروج الزائر: إن فلانا هذا كثير الكلام، لقد أضاع الوقت بلا طائل، ومع هذا كان العميد يحاول إخفاء ضيقه بكل زائر يطيل الجلوس دون حاجة إلى ذلك، ويشد على يديه وهو يودعه قائلا «بدرى». أحب أن أراك كثيرا.

أهمية التراث

وكان العميد يتهم الأدباء الشبان بالضحالة اللغوية والفكرية وذلك لأنهم لم يقدروا قيمة الوقت، ولم يدركوا أن الحياة لا تؤخذ طفرة،

وأن الآمال لا تتحقق دفعة واحدة، لقد ألهتهم المسارح والإذاعة المرئية فراحوا يضيعون جل أوقاتهم في مشاهدة ما تعرضه المسارح أو دور الخيالة، أو الإذاعة المرئية، وكان الأخلق بهم أن يعكفوا على التراث الفكرى في مصادره الأصيلة بالعربية وغيرها، قديما وحديثا حتى يستطيعوا أن ينتجوا أدبا ذا بال، أو أدبا عالميا.

والعميد فيما صدر عنه من آراء حول تجديد الأدب واللغة يؤكد أنه لا سبيل إلى التجديد والتطوير بغير قراءة التراث، وإن الذين يعتقدون أن تراثنا القديم خال من المضمون، وإنه صياغة لفظية تمتع الأذن ولكنها لا تغذى العقل مخطئون. فكل تراثنا ولا سيما في عصور الازدهار والنهضة تراث فكرى ولغوى أصيل، والذين يقللون من أهمية هذا التراث لم يطلعوا عليه. ولم يسبروا غوره، كما لم يفقهوا سره.

وطه حسين الأديب الذى منح ثمانى درجات دكتوراه من مختلف الجامعات العالمية والذى ترجمت بعض مؤلفاته وبخاصة الأيام، إلى كل اللغات المعاصرة تقريبا، والذى تسنم أرفع المناصب العلمية، هذا الأديب العبقرى، لم يعرف الغرور سبيلا إليه، وكان إذا أطراه إنسان فإنه يبتسم فى حياء. ويقول لمن يشيد به ويعدد مناقبه، «حيلك، حيلك»، (أى إنك أسرفت وجاوزت حد المعقول) ومن شواهد تواضعه أنه لم يرض عن إنتاجه الأدبى والعلمي، ولعل هذا كان مصدر عزوفه عن قراءة كل كتاب ألفه، أو مقال نشره، وهذا آية على أن الأديب الجاد والعالم المخلص لعلمه لا يرى فيما وصل إليه من دراسات وأبحاث

إلا محاولة على درب المعرفة الإنسانية تدفع بعجلة العلم والفكر إلى الأمام، ولا يدعى إطلاقا بأنه أتى بما لم يأت به الأوائل، وأنه قد حقق المعجزات وسبق الجميع، وهذا الإحساس هو الذى يحمل العلماء والأدباء على أن يواصلوا مسيرتهم الفكرية فى رهبنة وجد وإحسان، فلا ينضب لهم معين، ويظل عطاؤهم متدفقا حتى يأتى الكتاب أجله.

أما حين تهجم أفة الغرور على عالم أو أديب، ويزعم أنه قد بلغ ما لم يبلغه سواه، فإنه يبدأ رحلة التخلف والذبول، فلا يزال الإنسان عالما ما طلب العلم وحافظ عليه فإن ظن أنه قد علم فقد جهل.

ولما منح العميد قلادة النيل - وهى أعلى وسام فى مصر ولا تمنح إلا لرؤساء الدول والشخصيات البارزة - قال بعد أن قرأت له خبر منحه القلادة: الواقع أننى لا أجد سببا لهذه القلادة، قلت: كيف هذا واليوم تكرم الدولة العلم والأدب والفن - وكان منح العميد قلادة النيل فى يوم عيد العلم سنة ١٩٦٥م - وأنت رمز لهذه النهضة العلمية، كنت الرائد والقائد فوجب أن يعترف بدورك وتنال حقك.

فالعميد لا يرى سببا لإهداء القلادة إليه وكأنه يقول: إنه لم يقدم من الأعمال ما يستحق عليه هذا التكريم، وهذا هو التواضع الذى ينأى بالإنسان عن الغرور والادعاء.

ولا أنسى موقفا للعميد يشهد بإنسانيته ومجاملته الرقيقة وتواضعه الكريم، وكان هذا غداة حصولى على درجة الدكتوراه، فقد هنأنى العميد تهنئة حارة ثم قال: لقد تساوينا، فقد أصبحت دكتورا، فقلت: عفوا

يا سيدى أين الثرى من الثريا، فقال لقد حصلت على الدرجة الجامعية التى حصلت عليها من قبل فنحن الآن سواء، والفرق بينى وبينك أنى حصلت على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى والتهنئة وأنت حصلت عليها مع مرتبة الشرف الأولى فقط.

وشكرت العميد على عطفه ومجاملته، وأكبرت فيه هذه الروح الإنسانية، وهذا التواضع الجم.

والعميد كان - مع إنسانيته وكرمه وتواضعه وإيمانه بقيمة الوقت، وأثره فى حياة الأفراد والجماعات - لا يعيش فى الماضى، وإنما كان يحيا واقعه فى صدق وموضوعية، ولهذا كان يتمثل بقول الشاعر:

ما فات مـات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

والمستقرئ لما كتبه الدكتور طه حسين يستطيع أن يقف من خلاله على الملامح العامة للحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية فى مصر، وتطور هذه الحياة منذ مطلع القرن العشرين وحتى وفاة العميد، فالرجل عبر عن بيئته، وعاش واقع أمته، ولم يعش ثقافيا فى برج عاجى، وما كانت معاركه الفكرية والسياسية إلا تعبيرا حيا عن علاقته الحميمة بمجتمعه، وحرصه البالغ على نهضته وقوته حتى يصبح للأقوياء ندا، فلا تنتهك له حرمة، ولا ترفرف فى ربوعه أعلام أجنبية.

وبعد.. فإن تلك السنوات الأخيرة فى عمر العميد والتى أتيح لى أن ألقاه فيها أكدت أن العبقرية وحدها دون الجهد والعرق لا تحقق شيئا، وأن المفكر أو الأديب إذا توقف عن القراءة فإن هذا يعنى الموت بالنسبة

لحياته الفكرية، وأن جيل العمالقة من أمثال العميد والعقاد والمازنى والزيات وأحمد أمين والحكيم تعب كثيرا وبذل كثيرا. فمن أراد أن يصل إلى ما وصل إليه هذا الجيل أو يكون امتدادا طيبا له فليسلك سبيله فى الجد والقراءة، وألا يتعجل قطف الثمرة قبل أوان نضجها.

* * *

[ملحق]
طه حسين..
آراء أدبية غير مسئولة!

بقلم الأستاذ: رجاء النقاش رحمه الله

الدكتور محمد الدسوقي أستاذ من أساتذة الأدب العربي واللغة العربية، وهو أستاذ معروف في الأوساط الأدبية والجامعية بالأخلاق الطيبة، والاستقامة العلمية، والإخلاص للثقافة، والعكوف على العلم، بعيدا عن الزحام والضوء والثرثرة. وكان الدكتور الدسوقي قبل أن يتفرغ لعمله كأستاذ جامعي أحد العاملين البارزين في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي سنة ١٩٦٤م اختاره الدكتور طه حسين بعد أن أصبح رئيسا للمجمع اللغوي سكرتيرا له، وظل الدكتور الدسوقي ملازما لطه حسين حتى سنة ١٩٧٢م، أي؛ قبل وفاة طه حسين في أكتوبر سنة ١٩٧٣م بعام أو أقل من عام؛ حيث انتقل الدكتور الدسوقي إلى العمل في الجامعة، واضطره وضعه الجديد إلى إنهاء فترة عمله مع طه حسين، والتي استمرت حوالي ثماني سنوات، وأنا لا أعرف شيئا عن الدكتور الدسوقي الآن، وأرجو أن يكون في خير حال، فهو رجل جاد، وعالم فاضل، وشخصية تستحق التقدير والاحترام.

في خلال السنوات الثماني التي كان فيها الدكتور محمد الدسوقي قريبا من طه حسين، يقرأ له ويصاحبه في لقاءاته واجتماعاته المختلفة، استمع الدسوقي من طه حسين إلى آراء عديدة في الأدب والثقافة والحياة، واستمع منه أيضا إلى كثير من وجهات نظره الصريحة في أدباء عصره، وكانت هذه الآراء «شفهية»، أي: إن طه حسين لم يشر إليها في كتاباته المعروفة من قريب أو بعيد، ورأى الدكتور الدسوقي أن ينشر ما سمعه من آراء طه حسين في كتاب صغير عنوانه «طه حسين يتحدث عن أدباء عصره»، وقد صدرت لهذا الكتاب طبعتان عن «الدار العربية للكتاب في ليبيا وتونس».

ويحدثنا الدكتور الدسوقي عن منهجه في تسجيل آراء طه حسين، فيقول: «إن هذا الكتاب الذي أقدمه عن علاقة العميد الرائد ببعض أعلام عصره، ليس فيه إلا رواية النصوص والأخبار كما سمعتها، وإن كنت قد أضفت إلى ما سمعت بعض النصوص التي أشار إليها العميد، أو أكملت بعض ما تحدث عنه، وتلك الروايات والأخبار التي اشتمل عليها هذا الكتاب يتم نشر معظمها لأول مرة، ولذا تصبح لها قيمتها العلمية المهمة». ثم يقول الدكتور الدسوقي: «والذي أود الإشارة إليه أني كنت أحرص أبلغ الحرص على ألا يعرف العميد أني أدون شيئا مما يقول، وكنت أسمع حديثه وأسجله فور سماعه تسجيلا كاملا إن استطعت، أو أدون أفكاره الأساسية ثم أعيد كتابة حديثه في نفس اليوم بعد انتهاء اللقاء، ويعلم الله أني ما تقولت على العميد الجليل، أو حذفت

أى شيء مما قاله، وأني كنت أهدف من وراء حرصي على التدوين لكل ما أسمع وأرى خدمة الفكر والتاريخ، على أنني قد أمسكت عن نشر بعض ما أفضى به العميد؛ لأنه لا جدوى منه فى دراسة الحياة الفكرية لهؤلاء الأعلام، فضلا عما فى إذاعته من اهتزاز للصورة المشرقة لهم».

هذا هو تبرير الدكتور محمد الدسوقى لما قام به من تسجيل آراء طه حسين الشفوية ونشرها على الناس فى كتابه «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره».

والحقيقة أن الكتاب - فى حد ذاته - هو كتاب ممتع، وهو يعطينا لونا من ألوان الأدب غير المألوف فى ثقافتنا العربية، أعنى به: أدب الصراحة والوضوح والمكاشفة، والابتعاد الكامل عن المجاملة، وقد كان من الطبيعى أن تتوفر هذه العناصر جميعا فى هذا الكتاب الصغير المثير، فقد كان طه حسين يتحدث دون أى تحفظ مع سكرتيره الذى يثق فيه، وكأنه يتحدث مع نفسه، وفى مثل هذه الحالة لم يكن طه حسين مضطرا لأن يضع حسابا للاعتبارات الاجتماعية والعلاقات الإنسانية التى لابد أن تدفعه إلى التحفظ والحذر، كما أن طه حسين لم يكن يتصور مطلقا أن ما يقوله فى هذه الجلسات الشخصية الخاصة سوف يتم نشره فى كتاب.

على أن هناك نقطة يمكن أن نتوقف أمامها وقفة النقد والمراجعة هى ما اعترف به الدكتور الدسوقى من أنه كان يسجل آراء طه حسين دون علمه ودون استئذانه، وذلك ولا شك يعود إلى أن الدكتور الدسوقى

كان يريد لآراء طه حسين أن تكون عارية تماما من أى تحفظ أو تردد في إعلان تلك الآراء والتصريح بها، فذلك هو ما يضمن لهذه الآراء أن تكون أكثر إثارة، وأن تكون آراء جديدة لم يسمعها أحد أو يقرأها لطه حسين من قبل.

وهنا نتساءل: هل هذا الموقف هو أمر مقبول من ناحية الأخلاق العلمية الصحيحة؟ وهل يحق لأحد مهما كانت نيته حسنة وطيبة، أن ينسب للآخرين آراء قالوا بها عفو الخاطر في جلسات خاصة، دون أن يراجعوا أنفسهم في مدى دقة هذه الآراء وصوابها واتفاقها مع الحقيقة والواقع؟ وهل يحق لأحد أن يعلن على الناس آراء للآخرين، دون أن يكون أصحاب هذه الآراء على علم بأنها سوف يتم إعلانها والكشف عنها للجميع؟.

إن الثقافة العالمية تقدم إلينا نماذج رائعة لهؤلاء الذين أتيح لهم أن يكونوا تلاميذ لبعض الكبار فنقلوا عنهم الكثير، ولكنهم وضعوا لهذا النقل ضوابط دقيقة، منها: أن يكون ما يتم نقله مرتبطا بحكمة الكبار وآرائهم الصائبة والعميقة فى الحياة، وقد حرص هؤلاء التلاميذ الأوفياء على تسجيل فلسفة أساتذتهم، وما كانوا يرددونه من أفكار عالية سامية، بعد أن خشي التلاميذ على هذه الثروة أن تضيع وتتبدد؛ لأنها كلها كانت آراء شفهية غير مكتوبة.

ولا شك أن أبرز نموذج عرفه تاريخ الفكر الإنسانى فى هذا المجال هو نموذج أفلاطون «٤٢٨ – ٣٤٨ قبل الميلاد» فقد نقل «أفلاطون»

عن أستاذه «سقراط» كثيرا من آرائه، وقام بتسجيلها فى كتابه الخالد «محاورات أفلاطون»؛ فقد كان سقراط لا يكتب آراء وإنما كان يتحدث بها إلى تلاميذه ويتحاور معهم فيها، وكان أفلاطون هو أنبغ تلاميذ سقراط، فاستوعب محاورات أستاذه وسجلها بدقة وأمانة وأسلوب أدبى فنى جميل، فبقيت «محاورات أفلاطون» المنقولة عن «سقراط» عملا من أروع أعمال العقل الإنسانى على مر العصور والأجيال.

وهناك تجربة أخرى معروفة فى الأدب العالمى هى تجربة الأديب الألمانى «إكرمان» واسمه الكامل «يوهان بيتر إكرمان» «١٧٩٢م - ١٨٥٤م». و «إكرمان»، هو تلميذ لأديب ألمانيا العظيم جوته «١٧٤٩م - ١٨٣٢م»، فقد عاش «إكرمان» إلى جانب أستاذه «جوته» سنوات عديدة حرص فيها على تسجيل أفكاره الشفهية وآرائه المختلفة فى الأدب والحياة، والتى كان يقولها فى مجالسه الخاصة أو يفضى بها إلى تلميذه الأمين «إكرمان»، وجاء كتاب «إكرمان» جامعًا لهذه الأحاديث، وكان عنوانه «أحاديث جوته» وأصبح هذا الكتاب من الكتب الباقية التى يقرأها الناس فى ألمانيا وفى الغرب كله جيلا بعد جيل؛ لأن فيها من الحكمة والفلسفة الصافية عن الحياة والإنسان والثقافة ما يكشف عن جوانب مضيئة وغير معروفة فى شخصية «جوته» العظيم، ويقول مؤرخو الأدب: إن كتاب «إكرمان» هو أحد المراجع اللازمة لفهم تفكير جوته، وقد وصفه الفيلسوف نيتشه «١٨٤٤ - ١٩٠٠م» بأنه «أعظم كتاب فى اللغة الألمانية».

والذى لا شك فيه أن سقراط كان يعرف أن تلميذه أفلاطون يقوم بتسجيل آرائه وأفكاره تسجيلا دقيقا، كما أن «جوته» كان يعلم أن «إكرمان» يقوم بتسجيل آرائه وأفكاره وكان راضيا عن هذا التسجيل ومشجعا له.

فى مقابل هذا كله نجد الدكتور الدسوقى يعترف اعترافا صريحا فى مقدمة كتابه بأنه لم يستأذن طه حسين فى تسجيل آرائه، ولم يكن طه حسين يدرى أن مثل هذه الآراء سوف يتم نشرها على الناس فى يوم من الأيام، وكان من الممكن أن نتجاوز عن هذه الملاحظات لو أن ما جاء فى كتاب الدكتور الدسوقى كان آراء لطه حسين فى الأدب والفكر والحياة، فلا شك أن مثل هذه الآراء كانت سوف تحمل إلينا الكثير من خبرة طه حسين الطويلة مع تجارب الحياة والثقافة، خاصة أن طه حسين فى تلك الفترة التى ارتبط فيها مع الدكتور الدسوقى واتخذه سكرتيرًا له كان قد تقدم فى العمر وبلغ قمة النضج؛ فقد ارتبط الدكتور الدسوقى مع طه حسين ابتداء من سنة ١٩٦٤م وحتى سنة ١٩٧٢م، وكان طه حسين فى بداية هذه الفترة قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، وكان فى الثالثة والثمانين فى نهاية هذه المرحلة، أى: سنة ١٩٧٢م؛ إذ إن طه حسين هو من مواليد ١٨٨٩م.

وبدلا من ذلك كله فقط اختار الدكتور الدسوقى أن يعرض لنا بعض آراء طه حسين الخاصة والشخصية فى عدد من أعلام عصره، ممن اتصل بهم فى الجامعة أو فى الصحافة أو فى العمل العام، وجاءت بعض هذه

الآراء أشبه بالصدمة، وكانت فى أحيان كثيرة تبدو آراء تجريحية عدوانية غير مسئولة، كما أنها جاءت خالية من أى دليل يثبتها ويؤكد صحتها، وهى آراء تحمل اتهامات خطيرة جدًا لعدد من الشخصيات المهمة فى عصر طه حسين.

من أمثلة ذلك ما جاء على لسان طه حسين فى رواية الدكتور الدسوقى عن الدكتور محمد حسين هيكل، حيث يقول: «الدكتور هيكل لم يكن يؤلف كتبه، وإنما كان يكتبها له آخرون ثم ينسبها لنفسه، ومع هذا تشتمل على أخطاء علمية ضخمة «صفحة ٨٢ من كتاب الدكتور الدسوقى».

وهكذا بكل بساطة يلغى طه حسين كاتبًا من أكبر الكتاب العرب فى العصر الحديث، وهو الدكتور محمد حسين هيكل. والدكتور هيكل «١٨٨٨م - ١٩٥٦م» كان يكتب ويؤلف ويشارك فى الحياة السياسية منذ حصوله على الدكتوراه من السوربون سنة ١٩١١م وحتى وفاته سنة ١٩٥٦ عن ثمانية وستين عاما، وللدكتور هيكل أعمال تاريخية وفكرية وأدبية بالغة الأهمية، فروايته المعروفة «زينب» التى ظهرت سنة ١٩١٤م ينظر إليها كثير من النقاد ومؤرخى الأدب على أنها أول رواية عربية تكتمل فيها العناصر الفنية للرواية بمعناها الصحيح، وبهذا المعنى فإن الدكتور «هيكل» يكون هو مؤسس فن الرواية الحديثة فى الأدب العربى المعاصر، ومن ناحية أخرى فإن كتابات الدكتور هيكل الإسلامية عن «حياة محمد» و «أبى بكر الصديق» و «الفاروق عمر بن

الخطاب» و «فى منزل الوحى» تحتل جميعا مكانة رفيعة فى ثقافتنا الحديثة، وتجعل من مؤلفها الدكتور هيكل واحدا من أكبر المؤرخين الإسلاميين فى عصرنا الحاضر، وفى كل العصور منذ ظهور الإسلام إلى الآن.

لقد بدأ الدكتور هيكل الكتابة فى أوائل القرن العشرين ولم يتوقف عن الكتابة حتى وفاته، ومعنى ذلك: أنه ظل يكتب حوالى نصف قرن كتابة مؤثرة وناجحة ولها انتشار واسع بين جماهير المثقفين والمتعلمين العرب، ولم يحدث مطلقا أثناء الحياة الفكرية الطويلة والخصبة للدكتور هيكل أن أثار أحد من الكتاب أو النقاد من قريب أو بعيد هذه التهمة العجيبة، وهى أن كتابات الدكتور هيكل ليس له فيها غير وضع اسمه عليها، فهى كتابات كتبها غيره ممن استغلهم الدكتور هيكل ووضع اسمه على أعمالهم من باب الاستغلال والتزوير.

والاتهام الذى جاء على لسان طه حسين ليس عليه دليل من أى نوع، فليس فى الاتهام تحديد لأسماء الذين كانوا يكتبون للدكتور هيكل، أو استشهاد باسم واحد من هذه الأسماء. وفى المقابل فإننا نجد أمامنا دليلا عقليا منطقيا يقف إلى جانب الدكتور ويدافع عنه، وهو أن هناك «وحدة» فى المنهج والأسلوب فى كتابات الدكتور هيكل، مما يؤكد أنها كلها صادرة عن شخصية فكرية واحدة، والمفروض أن تكون هذه الشخصية هى شخصية الدكتور هيكل نفسه، ولكن الكلام المنسوب إلى طه حسين يشير إلى أن هناك أشخاصا متعددين وراء كتابات هيكل،

ولا يستطيع أى منهج علمى دقيق أن يقبل وجود عدة أشخاص وراء كتابات الدكتور هيكل؛ لأن الذى كتب هذه المؤلفات هو شخص واحد، له أسلوب خاص به، وله منهج محدد متميز فى التفكير، ولو افترضنا صحة اتهام طه حسين، فمن الضرورى أن يكون وراء كتابات الدكتور هيكل شخص واحد كتب كل هذه الكتابات الخصبة الرائعة، وضحى بنفسه وجهده، وسمح للدكتور هيكل بوضع اسمه على هذه الكتابات، فمن هو هذا الشخص الذى كتب مؤلفات الدكتور هيكل؟ ولماذا رضى أن يقدم كل هذه الأعمال الفكرية والأدبية البارزة إلى الدكتور هيكل ويختفى تماما وراء هذا الاسم، ويسمح لاسمه الشخصى وموهبته العالية أن يسقطا نهائيًا من تاريخ الفكر والثقافة؟، وهل من الممكن أن يكون هناك مفكر وأديب لديه كل هذا العمق وهذه الخصوبة يرضى لنفسه أن يبيع ثقافته وموهبته لشخص آخر بهذه الطريقة المكشوفة وغير المنطقية؟ وما هو المقابل الذى يمكن أن يحصل عليه شخص يقوم بهذه التضحية؟ هل يكون ذلك فى مقابل المال؟ إن المعروف أن الدكتور هيكل قد كسب الكثير من كتبه ومؤلفاته، ولعله كان أول صاحب قلم فى الثقافة العربية المعاصرة يجنى ثروة كبيرة بمقاييس عصره من مؤلفاته، وخاصة كتابه «حياة محمد» الذى لا يزال يعاد نشره إلى الآن، وقد تجاوزت طبعاته العشرين، وهو أمر نادر بالنسبة لأى كتاب عربى مهما كانت أهميته وقيمته. ولو كان هناك شخص يكتب للدكتور هيكل، فلا شك أنه كان يملك من العقل والوعى ما يجعله على معرفة

بالعائد المادى الكبير الذى حصل عليه الدكتور هيكل من مؤلفاته، حتى يقال إن الدكتور هيكل بنى لنفسه بيتا كبيرا أنيقا فى حى الدقى من الأموال التى عادت عليه من كتاب «حياة محمد» فقط، وليس من المعقول أن يعرف الشخص الذى يقال إنه كان يؤلف كتب الدكتور هيكل ذلك كله، ويرضى به، ويسكت عنه، ويبيع مثل هذا الإنتاج الفكرى الناجح لشخص آخر مقابل أموال كان من الممكن أن يحصل على أضعافها من هذا الإنتاج نفسه.

إن رأى طه حسين فى الدكتور هيكل والذى أورده الدكتور الدسوقى على لسانه فى كتابه «طه حسين» يتحدث عن أعلام عصره، هو رأى غير مسئول، ولا يمكن لأى مقياس علمى مستقيم ونزيه أن يتقبله أو أن يسلم به.

رأى آخر جاء على لسان طه حسين هو رأيه فى الدكتور زكى مبارك؛ حيث يقول عن سبب خروج زكى مبارك من عمله كأستاذ فى جامعة القاهرة فى ثلاثينيات القرن الماضى ما يلى:

«إن خروج زكى مبارك من الجامعة يرجع إلى سلوكه الشخصى، فقد كان هذا السلوك يتنافى مع كرامة أستاذ الجامعة، وقد ذكر لى فؤاد سراج الدين أنه - أى سراج الدين - كان ينجح فى الامتحان حين كان يدرس بكلية الآداب قبل أن يتلقى دروس كلية الحقوق؛ حيث كان النظام فى ذلك الحين يفرض على طلبة الحقوق أن يدرسوا فى كلية الآداب بعض المناهج فى اللغة والأدب قبل دراسة علوم الحقوق.. ذكر لى

فؤاد سراج الدين أنه كان لا يذاكر علوم الآداب، وكان يعطى لأستاذه فى هذه العلوم زكى مبارك زجاجة كولونيا فينجح فى الامتحان. «صفحة ٤٩ من كتاب الدكتور الدسوقى».

وهكذا بكل بساطة، وعلى لسان طه حسين، أصبح واحد من أكبر الأدباء والمفكرين العرب في القرن العشرين وهو زكى مبارك «١٨٩١م - ١٩٥٢م» متهما ببيع «ذمته العلمية» بزجاجة كولونيا، وهذا أيضا كلام غير مسئول، فالثابت أن الذى أخرج زكى مبارك من الجامعة سنة ١٩٣٤م هو طه حسين الذى كان رئيسًا لقسم اللغة العربية، وكان زكى مبارك مدرسا فى هذا القسم، وعندما حان موعد تجديد عقد زكى مبارك رفض طه حسين أن يوافق على هذا التجديد، وكانت موافقة رئيس القسم شرطا لذلك، وقد أطلق طه حسين عبارة أصبحت مشهورة عنه يبرر فيها رفضه لتجديد عقد زكى مبارك. وفى هذه العبارة يقول: «إن أحدا لم يستشرنى فى تعيين زكى مبارك، وأنا لا أقبل أن أستشار فى تجديد عقده». وهذا الكلام الذى جاء على لسان طه حسين هو هروب لفظى من المسئولية، أما نتيجته العملية فكانت إخراج زكى مبارك من عمله كمدرس فى الجامعة. وقد كان موقف طه حسين من زكى مبارك موضع نقد شديد من بعض كبار أدباء مصر فى تلك الفترة «سنة ١٩٣٤م»، وكتب الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى مقالا يهاجم فيه موقف طه حسين، وكان مقال المازنى عنوانه «طه حسين بين البغى والعقوق» وفيه يقول: وأنا أنقل هذا النص من كتاب «عبقرى من سنتريس - زكى

مبارك الملاكم الأدبى» للأستاذ محمد رضوان: «إن الدكتور طه حسين أصبح ممن يملكون إشباع البطون وإجاعتها وأنه صار يضرب اللقمة التى ترتفع بها اليد إلى الفم، ويجعلها تطير فتسقط على الأرض لتفوز بها الكلاب ويحرم منها الإنسان». أما زكى مبارك نفسه فقد علق على موقف طه حسين من التجديد له وحرمانه من عمله في الجامعة بعبارة مشهورة جدًا كان أدباء الجيل الماضى يحفظونها ويرددونها لطرافتها وعنفها معا، فقد قال زكى مبارك «لو جاع أولادى» بسبب إخراجى من عملى فى الجامعة «لشويت لهم طه حسين وأطعمتهم لحمه»!

إن زكى مبارك هو أديب كبير وصاحب إنتاج ثقافى وأدبى غزير ومعروف بقيمته العالية، فهو صاحب «التصوف الإسلامى» و «النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى» و «عبقرية الشريف الرضى» و «ليلى المريضة فى العراق» و «المدائح النبوية» و «مدامع العشاق» وغيرها من روائع الأدب والفكر والتاريخ، مما يرفع مقام زكى مبارك ليكون واحدا من أكبر زعماء الأدب العربى فى القرن العشرين. وزكى مبارك له مواقف معروفة، ومعارك مكشوفة، وكل شىء فى تاريخه يؤكد تعرضه لمتاعب ضخمة بسبب صراحته وأمانته العلمية الصارمة، ولو كان زكى مبارك ممن يبيعون ذمتهم العلمية بالهدايا والرشاوى، أو ممن يعرضون أقلامهم فى مزادات البيع والشراء، لاتجه إلى ما هو أنفع وأنجح فى ميدان الانتهازية وسوق الانتهازيين، فقد كان زكى مبارك يعيش فى عصر تتقاتل فيه الأحزاب السياسية الكبرى لشراء الأقلام

وتزيين صدرها بأسماء كبار الكتاب، وكان قلم زكى مبارك قلما ذهبيا، وكانت كلماته ساحرة، وكان أى حزب يتمناه ليكون قوة استثنائية فى الدفاع عن هذا الحزب ومهاجمة خصومه، ولم يكن أى حزب يتردد فى شراء قلم زكى مبارك بأعلى سعر، ولكن زكى مبارك رفض ذلك كله وعاش فى ضائقة اقتصادية حتى نهاية حياته سنة ١٩٥٢م؛ فقد كان شديد الحرص على حريته واستقلال كلمته وتوجيه جهوده إلى البحث العلمى والأدبى، وزكى مبارك هو ولا شك واحد من أكبر الأدباء والمفكرين أصحاب الكرامة والعفة والأمانة بين كل أدباء العرب فى كل العصور. والكلام الذى جاء على لسان طه حسين عن زكى مبارك هو كلام غير مسئول مثله فى ذلك مثل الكلام الذى سبقه عن الدكتور هيكل.

والذين يدرسون أدب زكى مبارك وحياته سوف يجدون أنه كان فى غاية الصدق عندما قال عن نفسه يوما: «لو كان زكى مبارك قد أنفق نشاطه فى الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه - بلا أسف - سيموت فقيرا؛ لأنه أنفق نشاطه فى خدمة الأدب العربى».

ونتوقف أخيرا عند الكلام المنسوب إلى طه حسين عن الدكتور محمد مندور «١٩٠٧ - ١٩٦٥م»؛ حيث جاء على لسان طه حسين قوله: إن الدكتور مندور ليس ذا بال فى الثقافة، وليس له دور فكرى مهم فى حياتنا الثقافية فى هذا القرن، أى فى القرن العشرين، وكتاب مندور عن «النقد المنهجى عند العرب» كتاب «هايف»، وهذا الكتاب هو رسالة

دكتوراه تقدم بها مندور إلى جامعة القاهرة؛ وكنت أنا– أى: طه حسين – «قد أوفدته فى بعثة إلى باريس، وبقى هناك تسع سنوات ولم يتمكن طوال هذه المدة من الحصول على درجة الليسانس فى اليونانى بسبب لهوه وعبثه، وعدم إخلاصه للعمل العلمي، وبعد عودته من باريس قدم ذلك الكتاب كرسالة حصل بها على الدكتوراه!» «ص٨٣ من كتاب الدكتور الدسوقى».

هذا هو الكلام المنسوب إلى طه حسين عن محمد مندور، وهو كلام غير مسئول أيضا، فإن محمد مندور هو أحد رواد النقد فى الأدب العربى المعاصر، كما أنه أحد المفكرين السياسيين الكبار الذين تصدوا للدفاع عن الحرية والعدالة، ودخل السجن بسبب جرأته وشجاعته وصراحته فى الحرب على الطغيان السياسى والظلم الاجتماعى. وجهود مندور فى النقد الأدبى والفكر السياسى هى جهود كبيرة وبالغة القيمة والأهمية وهو على الإجمالى شخصية أدبية وسياسية لها وزنها ودورها وأهميتها الكبيرة، ولا يمكن الحديث عنها بمثل هذه الخفة، ومن العجيب حقا أن يصدر مثل هذا الكلام عن أديب ومفكر فى حجم طه حسين وعلمه وأستاذيته. وما جاء على لسان طه حسين عن كتاب مندور «النقد المنهجى عند العرب» هو كلام بعيد عن الحقيقة تماما، فهذا الكتاب ليس فيه «هيافة» كما قيل عنه بل هو مرجع أساسى لكل الباحثين فى تاريخ النقد العربى ومدارسه المختلفة منذ صدور الكتاب فى أربعينيات القرن الماضى إلى اليوم.

وأخـيرا، هل نعتبر طه حسين «مسئولا» عن هذا الآراء «غير المسئولة» أو أن «المسئولية» فيها تقع على غيره؟

أعتقد أن مسئولية طه حسين عن هذه الآراء محدودة جدا، ويمكن لأى باحث أن يشك فى صحة هذه الآراء وفى نسبتها إلى طه حسين، وخاصة أنه لا يوجد لها أى أصول أولية فى كتب طه حسين. وإذا أعفينا طه حسين من مسئوليته عن هذه الآراء فإن المسئول عنها يكون هو الذى نقلها على لسان طه حسين، ودون إذنه أو معرفته بذلك أو تصريح منه بإعلانها على الناس. والذى نقل هذه الآراء هو الدكتور محمد الدسوقى فى كتابه «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره»، وقد كتبت من قبل نقدا لهذا الكتاب، وأعود اليوم إلى هذا النقد حتى لا يتعرض الباحثون فى أدبنا المعاصر لأى خطأ إذا اعتبروا هذا الكتاب مرجعا علميا يمكن الاعتماد عليه والأخذ بما جاء فيه. وأنا لا أتهم الدكتور الدسوقى بالكذب على طه حسين، ففى حدود معرفتى المحدودة به أثق كل الثقة بأنه رجل فوق الكذب وفوق الافتراء والتلفيق، ولكن الدكتور الدسوقى فى تقديرى قد تعرض لخطأ لابد من الإشارة إليه، وهو أنه اعتبر الآراء التى سمعها من طه حسين آراء يصح نقلها إلى الناس، رغم أن هذه الآراء كانت آراء يلقيها طه حسين فى جلسات خاصة جدا، وهى جلسات راحة واسترخاء لا يراجع فيها نفسه، ولا يدقق فيما يقوله، كما أن هذه الآراء قد وردت على لسان طه حسين فى شيخوخته، وبعد أن تجاوز الخامسة والسبعين، ومن المحتمل جدا أن ذاكرته فى هذا

العمر كانت قد ضعفت، وربما ردد طه حسين بعض هذه الآراء بتأثير مشاكل قديمة وقعت بينه وبين بعض رجال عصره، وهذه الظروف التى صدرت فيها هذه الآراء لطه حسين تجعل هذه الآراء مطعونا فى صحتها ودقتها وانضباطها العلمى، وأظن أنه كان على الأستاذ الفاضل محمد الدسوقى أن ينتبه إلى هذه الأمور جميعا، وأن يضعها فى اعتباره، ولعله لو فعل ذلك لما أصدر هذا الكتاب بهذه الصورة، وقد كان من الأفضل أن ينقل آراء طه حسين فى الحياة وبعض خبراته فى تجاربه الإنسانية والثقافية الواسعة، وليس من المعقول أبدا أن يكون الدكتور محمد الدسوقى قد عمل مع طه حسين وقريبا منه كل هذا القرب الشخصى الذى كان يسمح له بالدخول إلى طه حسين فى غرفته، ثم يقول لنا الدكتور الدسوقى فى كتابه إنه لم يسمع من طه حسين طيلة ثمانى سنوات متصلة، من ١٩٦٤م إلى ١٩٧٢م إلا سب الناس والتشهير بهم والتشكيك فيهم وتصغير شأنهم بإلقاء مجموعة من الاتهامات الخطيرة عليهم، وهى جميعا اتهامات لا يساندها أى دليل أو برهان.

تعليق:

رحم الله الأستاذ رجاء النقاش لقد كان أديبا متمكنا وناقدا عظيما، ومفكرا متبحرا، وقد عرفته منذ كان طالبا فى المرحلة الثانوية، وعرفته أيضا حينما كان رئيسا لتحرير مجلة الدوحة، وكذلك مجلة أخبار الأسبوع وهو رجلٌ موضوعى أو حريصٌ على إظهار الحقيقة التاريخية.

ومع هذا أقرر أن ما جاء على لسان طه حسين كان فى مرحلة من حياة هذا الرجل يتمتعُ فيها بصحة جيدة، ولم يكن مرض النسيان قد هجم عليه وهو فيما قاله عن زكى مبارك نقله من رئيس حزب الوفد بعد النحاس وهو سراج فؤاد الدين، كما أن الأستاذ محمد شوقى أمين قد ذكر لى أن زكى مبارك كان قد هاجم طه حسين وهدده بأنه ما لم يكف عن التعرض له سينتقم منه انتقامًا خاصًا ولكن زكى مبارك بعد هذا الحديث رحل عن الحياة.

وأخيرًا أكرر دعائى للأستاذ رجاء بالرحمة والمغفرة وشكرا له على كلماته الطيبة عنى وغفر الله للجميع.

وأخيرا أقدم خالص الشكر للأخ الفاضل / وليد كساب الذى أمدنى ببحث الأستاذ / رجاء النقاش الذى كان منشورا فى مجلة وجهات نظر، العدد (٧٣) الصادر فى فبراير ٢٠٠٥م.



الفهرس

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

يصدر قريبا

■ الديمقراطية وحقوق الإنسان
د. صلاح بيومى

رقم الإيداع	٢٠٢٤٧ / ٢٠١٣
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7885-7

١٥٣ / ٢٠١٣ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)